المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية



قوم ثمود
بين روايات المؤرخين ومحتويات النقوش

بقلم
الدكتور خالد طه الدسوقي

مستلة من مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
العدد السادس
١٣٩٦ هـ – ١٩٧٦ م

قوم ثمود
بين روايات المؤرخين ومحتويات النقوش

للدكتور . خالد طه الدسوقي
الأستاذ المساعد للتاريخ القديم بالكلية

أصل قوم ثمود وبداية تاريخهم :

لعل مما يؤخذ على المؤرخين العرب أنهم لم يذكروا إلا قليلاً عن أسلافهم الذين عاشوا قبل الإسلام فوق رمال شبه الجزيرة العربية وكانوا أصحاب حضارة زاهرة دلت عليها تلك الآثار والنقوش المتناثرة في جميع أنحاء جزيرة العرب . وقد يرجع ذلك إلى أنهم لم يهتموا كثيراً بتلك الأقوام التي عاشت أيام الجاهلية والوثنية لأن أحداث التاريخ الإسلامي الكبرى شدت انتباههم واستقطبت تفكيرهم ، ولأنهم نظروا إلى تلك الحقبة التاريخية نظرة خاصة لما ساد فيها من تقاليد تعارض ما جاء به الإسلام[1] . يضاف إلى ذلك عدم معرفتهم بقراءة وتفسير تلك النقوش التي خلفها أولئك الأسلاف والتي تضمنت أخبار وحياة تلك الشعوب العربية التي عاشت قبل الإسلام .

ولقد شارك تاريخ ثمود وغيره من تاريخ الأمم العربية قبل الإسلام في قلة الاهتمام بتدوينه وتمحيص أحداثه ، إذ أن كل ما نعرفه عن هؤلاء القوم قد وصل الينا إما عن طريق القرآن الكريم أو عن طريق الروايات التي تناقلها الناس جيلاً بعد جيل حتى ظهور الإسلام[2] .

---

(١) أنظر ، ف. روزنتال : علم التاريخ عند المسلمين ص ٣٠ من الترجمة العربية لصالح أحمد العلي .
(٢) قارن ، سيده اسماعيل كاشف : مصادر التاريخ الإسلامي ومناهج البحث فيه ص ١٢ .

لقد وردت إشارات عن قوم ثمود في الشعر الجاهلي[1] . وقد ذكر الطبري أن شعراء الجاهلية ذكرت في شعرها عاداً وثمود وأن أمرهما كان معروفاً عند العرب في الشهرة قبل الإسلام[2] . ولكن يبدو أنه بظهور الإسلام بدأت الروايات عن ثمود وغيرهم من الأمم التي عاشت قبل الإسلام يقل ورودها في الخبر ، الأمر الذي أدى إلى أن تبدو ظلالاً باهتة وفي ذلك يصرح أبو الفداء في تاريخه أن تاريخ هذه الأمم قد غلفته غلالة من النسيان لأنه يضرب في أعماق الماضي البعيد[3] . ولعل أبا الفداء قد أصاب الحقيقة إذ قد ضرب المثل في القرآن الكريم بقدم قوم نوح وقوم عاد وثمود حتى إن أخبارهم خفيت عن الناس فلا يعلمها إلا الله « وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد . ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات »[4] وفي ذلك دلالة على أن الناس في أيام الرسول كانوا يرون أن الأقوام المذكورة هي من أقدم الأقوام ، ولهذا ذكروا بهم للأتعاظ . والروايات العربية الواردة عنهم لا تعرف من تأريخهم شيئاً ، إنما روت عنهم قصصاً أوردتها لمناسبة ما ذكر عنهم في القرآن الكريم على سبيل العظة والاعتبار والتذكير[5] . فقد ورد ذكر ثمود في الكتاب الذي وجهه يزيد بن معاوية إلى أهل المدينة يهددهم فيه بمصير يشبه مصير عاد وثمود حيث ينزل بهم عقاباً شديداً ويصيرهم حديثاً للناس « وأتركَكم أحاديث تنسخ بها أخباركم مع أخبار عاد وثمود »[6] .

---

(١) كما ورد في شعر لسلمه بن الحرث ، وهو من معاصري عمرو بن كلثوم :

حتى تـزور السبـاع ملحمة   كأنها من ثمـود أوارهـا

(ديوان المفضليات ص ٤٢٨) وأيضاً :

ويوم الحنو قد علمت معـد   حصدناكـم كما حصدت ثمود

(ديوان المفضليات ص ٤٣٩) .

(٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك جـ١ ص ٢٣٢ (طبعة دار المعارف) .

(٣) تاريخ أبي الفداء جـ١ ص ٤ .

(٤) سورة إبراهيم : آية ٨ ، ٩ .

(٥) جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام جـ١ ص ٣٢٢ – (بيروت – ١٩٦٨) .

(٦) ابن قتيبة : عيون الأخبار جـ١ ص ٢٠٢ .

لقد اعتبر أهل الأخبار قوم ثمود من الأمم البائدة وذكروهم ضمن ما ذكروا من أخبار هذه الأمم مثل عاد وطسم وجديس وغيرهم . وقد جاء اسم ثمود في مواضع عديدة من القرآن الكريم ، جاء منفرداً وجاء مقروناً باسم شعوب أخرى مثل قوم نوح وقوم عاد ، فبدأ بقوم نوح ثم عاد ثم ثمود[1] . وقد جاء أصحاب الرس بعد ثمود في موضعين[2] ، كما جاء اسم ثمود بعد اسمهم في موضع واحد[3] . وورد أيضاً في ذكر قوم لوط وأصحاب الأيكه وقد تقدم في هذا الموضع اسم ثمود ودعت الآية أولئك الأحزاب[4] . كما ورد ذكر ثمود مع عاد[5] وقد تقدم اسم عاد على ثمود إلا في آية واحدة تقدم فيها اسم ثمود على اسم عاد « كذبت ثمود وعاد بالقارعة »[6] وقد ورد اسم ثمود في آيات أخرى من القرآن الكريم .

لقد اختلف المؤرخون في أصل ثمود وبداية وجودهم ، فينسب النسابون ثمود إلى ثمود بن جاثر بن إرم بن سام بن نوح[7] . ويكتفي بعضهم بإرجاع نسبهم إلى عاد ، فيقولون عنهم إنهم من بقية عاد « وثمود ، كصبور بن عابر بن إرم بن سام ، قبيلة من العرب الأول ، ويقال إنهم من بقية عاد »[8] . وينسبهم بعض آخر إلى عابر بن إرم بن سام بن نوح ، وزعموا أن ثمود هو أخو جديس[9] . وهناك من يقول إنهم من اليهود سكنوا في مدائن صالح « الحجر » ولم يدخلوا فلسطين . وهذا القول لا يعدو أن يكون ظناً لا أثر فيه للتحقيق ، إذ القرآن ناطق بأنهم قد انقضى أمرهم وعريت ديارهم من كل ديار قبل خروج سيدنا موسى من مصر ببني إسرائيل ،

---

(١) سورة التوبة : آية ٧٠ ، إبراهيم : آية ٩ ، الحج : آية ٤٢ ، غافر : آية ٣١ .
(٢) سورة الفرقان : آية ٣٨ .
(٣) سورة ق : آية ١٢ .
(٤) سورة ص : آية ١٣ .
(٥) سورة العنكبوت : آية ٣٨ ، فصلت : آية ١٣ ، النجم : آية ٥١ .
(٦) سورة الحاقة : آية ٤ .
(٧) جواد علي : المرجع السابق جـ١ ص ٣٢٤ ، صبح الأعشى ٣١٣/١ .
(٨) تاج العروس ٣١٢/٢ ، اللسان ١٠٥/٣ .
(٩) ابن كثير : البداية ١٣٠/١ وما بعدها .

وهذا مؤمن آل فرعون قام حين كذبوا موسى يخوف قومه بأس الله وأنه يخاف عليهم مثل يوم الأحزاب مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم[1] . وقال آخرون إنهم بقية من العماليق انتقلوا إلى ذلك المكان من غرب الفرات ، ويحتمل أن الذي أوحى بهذا الرأي هو أن قوم ثمود كانوا يعتبرون عرباً والعرب إنما سموا بهذا الاسم – في رأي البعض – لأنهم سكنوا غرب الفرات وأن الأمم التي أطلقت عليها اسم « عرب » إنما تنطق الغين المعجمة عيناً مهملة[2] . ويظن آخرون أنهم من العماليق الذين طردهم أحمس مؤسس الأسرة الثامنة عشرة الفرعونية وقد حذقوا صناعة النحت أيام إقامتهم بمصر ، لذلك نحتوا لهم بيوتاً بعضها نقر في الصخر وبعضها كان بناء كسائر الأبنية التي تتخذ من الصخر[3] . وليس هناك ما يؤيد هذا الرأي وأما أنهم حذقوا صناعة النحت أيام إقامتهم بمصر ، فليس من الضروري أن يكون قوم ثمود قد أقاموا في مصر ليتعلموا من المصريين هذا الفن ، إذ عن طريق الاتصالات التي كانت بين الشعبين . يحتمل أن تكون هـذه الصناعة قد تسربت عبر البحر الأحمر إلى حيث كان يقيم الثموديون . والرأي الأقرب إلى الصواب أن قوم ثمود من بقية عاد[4] . ويؤيده قوله تعالى على لسان صالح عليه السلام : « واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً »[5] .

وإذا كان قوم عاد قد وصفوا في القرآن الكريم بأنهم كانوا أكبر أجساماً « وزادكم في الخلق بسطة »[6] ، فليس من المستبعد أن وصف قوم ثمود بالعماليق

---

(١) سورة غافر : آية ٣٠ ، ٣١ .
(٢) عبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء ص ٤٩ .
(٣) نفس المرجع ص ٥٨ .
(٤) تاج العروس ٣١٢/٢ ، اللسان ١٠٥/٣ .
(٥) سورة الأعراف : آية ٧٤ .
(٦) سورة الأعراف : آية ٦٩ .

أوحى به أنهم من بقية عاد . ويفهم من القرآن الكريم أن مساكن عاد بالأحقاف « واذكر أخا عاد ، إذ أنذر قومه بالأحقاف »[1] . ولقد أجمع المفسرون على أن الأحقاف هي الرمل بين اليمن وعمان إلى حضرموت والشحر[2] .

ومعظم المؤرخين المحدثين يتفقون على أن شعب ثمود كان أصلاً يقطن اليمن[3] قبل انتقاله إلى شمال غرب الجزيرة العربية ، وهذا يتفق مع ما هو معروف عن القبائل الجنوبية بكثرة تنقلها[4] ومع كونهم بقية من عاد .

أما عن زمن وجود قوم ثمود فكل ما نعرفه أن أمرهم قد انقضى قبل خروج سيدنا موسى من مصر ببني إسرائيل[5] . فإذا كان خروج بني إسرائيل قد حدث حوالي عام ١٢١٦ ق.م على أيام سيتي الثاني[6] فيكون قوم ثمود قد ظهروا وعاشوا وانقضى أمرهم قبل القرن الثالث عشر قبل الميلاد . ومن قبلهم عاش قوم عاد الذين خلفوا قوم نوح كما قال تعالى : « واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح »[7] .

وإذا أخذنا بالرأي القائل بأن الطوفان العظيم في عهد نوح عليه السلام حدث في جنوب بلاد الرافدين عام ٢٣٤٩ ق.م[8] فيمكن القول بأن قوم عاد وثمود قد عاشوا

---

(١) سورة الأحقاف : آية ٢١ .

(٢) ابن خلدون ١٩/٢ ، المفضليات ص ١٥ ، جواد علي : المرجع السابق جـ ١ ص ٣٠٤ .

(٣) E. Glaser, Skizze der Geschichte und Geographie Arabians von den altesnte Zeiten bis zum Propheten Muhammed (Berlin, 1891), vol. II, P. 123 f; R. Dussaud, La pénétration des Arabes en Syrie avant l'Islam. (Paris, 1955), P. 132.

(٤) O. Blau, „Die Wanderung der Sabaischen Vôlkerstamme um 2 Jahr. wach Christus", ZDMG, 22 (1868), p. 6459-673.

(٥) سورة إبراهيم : آية ٨ ، ٩ .

(٦) أحمد عبد الحميد يوسف : مصر في القرآن والسنة ص ١٣٩–١٤٨ .

(٧) سورة الأعراف : آية ٦٩ .

(٨) G. Daniel, The First Civilisations: The Archaeology of their Origins (London, 1968), p. 36F. and n. 39.

في الفترة ما بين عام ٢٣٤٩ ق.م. إلى ما قبل عام ١٢١٦ ق.م. وهو عام خروج سيدنا موسى ببني إسرائيل من مصر .

والمشهور من أقوال من يتعرضون للكلام عن عاد أنهم بادوا بعد وجود سيدنا إبراهيم وبناء البيت بمكة[١] . وإذا كان صحيحاً ما ذهب اليه بعض المؤرخين من أن إسماعيل كان في الثلاثين من عمره يوم أمر الله عز وجل إبراهيم ببناء الكعبة[٢] فإن بناء الكعبة حينئذ يكون في حوالي عام ١٨٢٤ ق.م. على أساس أن إسماعيل قد ولد في عام ١٨٥٤ ق . م . (وتوفي عام ١٧١٧ ق . م .) وعلى أساس أنه ولد لإبراهيم وهو في السادسة والثمانين من عمره وإن إبراهيم قد عاش في الفترة (١٩٤٠–١٧٦٥ ق.م.)[٣] .

ولما كان قوم ثمود قد خلفوا عاداً فيمكن القول أن قوم ثمود ظهروا وعاشوا وبادوا في الفترة ما بعد عام ١٨٢٤ ق.م. إلى ما قبل عام ١٢١٦ ق.م .

أما منازل ثمود فيبدو أن الجاهليين كانوا يعرفونها معرفة جيدة كما في قوله تعالى « وعاداً وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم »[٤] . ويظهر من الآية « وثمود الذين جابوا الصخر بالواد »[٥] أن مواضعهم كانت في مناطق جبلية أو في هضاب ذات صخور . وقد ذكر المفسرون أن معنى « جابوا الصخر » قطعوا صخر الجبال

---

(١) عبد الوهاب النجار : المرجع السابق ص ٥٠ .

(٢) علي حسني الخربوطلي : الكعبة على مر العصور ص ١٦ (القاهرة ١٩٦٧) .

(٣) محمد بيومي مهران : إسرائيل ص ١٧٧ ، وانظر أيضاً : دراسة حول قصة الطوفان بين الآثار والكتب المقدسة ، بحث للدكتور محمد بيومي مهران نشر بمجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية : المجلد الخامس ص ٤٣٤ (١٩٧٥م) .

(٤) سورة العنكبوت : آية ٣٨ .

(٥) سورة الفجر : آية ٩ .

واتخذوا فيها بيوتاً[1] « وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين »[2] أما الوادي فهو وادي القرى[3] وبذلك تكون مواطن ثمود في هذه الأماكن . ولقد حدد القرآن الكريم هذه الأماكن بقوله تعالى : « لقد كذب أصحاب الحجر المرسلين »[4] وعلى أساس ما جاء في القرآن الكريم ذكر أكثر الرواة « الحجر » على أنه ديار ثمود كما ذكر الجغرافيون وعلماء البلدان الذين زاروها أن بها بئراً تسمى بئر ثمود[5] . ويذكر أهل الأخبار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما غزا غزوة تبوك نزل الحجر ونهى الناس من دخول القرية ومن شرب مائها[6] . وفي عام ١٣٢٦ م زار الرحالة العربي ابن بطوطة الحجر ورأى منازل قوم ثمود المنحوتة في الجبال ذات الأحجار الحمراء كما ذكر أن جثثهم كانت داخل هذه المنازل[7] . وهناك احتمال كبير أن مكان هذه المنطقة قد أطلق عليهم اسم ثمود بسبب الظروف الجغرافية للمكان الذي عاشوا فيه ، إذ كلمة « ثمد » تعني الماء القليل الذي لا ماد له وقيل هو الذي يظهر في الشتاء ويذهب في الصيف[8] .

ويرى دوتي أن الحجر هو موضع الخريبة في الوقت الحاضر ، لا مدائن صالح

---

(١) الزمخشري : الكشاف ٢٠٩/٤ ، تفسير الطبري ١١٣/٣٠ .

(٢) سورة الحجر : آية ٨٢ .

(٣) يمتد من العلا – ديدان القديمة – إلى المدينة المنورة ، وهو من المواضع المعروفة بالخصب في جزيرة العرب به عيون وآبار ، لذلك اشتهر بالعمار منذ أيام ما قبل الميلاد ، انظر : جواد علي : المرجع السابق جـ ٤ ص ٢٦٣ .

(٤) سورة الحجر : آية ٨٠ .

(٥) جواد علي : المرجع السابق جـ١ ص ٣٢٣ ، الطبري ١١٨/١ ، تقويم البلدان ص ٨٩ .

(٦) الطبري ٢٣١/١ وما بعدها ، الكامل ٢٧٩/٢ (بيروت ١٩٦٥م) .

(٧) رحلة ابن بطوطة ص ١١٢ ، ١١٣ (بيروت ١٩٦٠م) . وبرغم هذه الروايات فإن المؤرخين المحدثين يرون في هذه المنازل الثمودية مقابر الأنباط الجميلة ، انظر :

A. Jaussen and R. Savignuc, Mission archéologique en Arabie (Paris, 1920 , Vol. III, p. 78-108.

(٨) اللسان ١٠٥/٣ .

التي يرى أنها حجر الأنباط والتي تقع على مسافة عشرة أميال من موضع الحريبة(١) .

مما تقدم نرى أن قوم ثمود الذين جاء ذكرهم في القرآن الكريم قد اتخذوا من الحجر موطناً ومستقراً حيث نحتوا في الجبال بيوتاً وبنوا في السهول قصوراً وكانت لهم جنات وعيون « أتتركون في ما ها هنا آمنين في جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين »(٢) . ولكن هؤلاء الثموديين كانوا يدينون بالأصنام يشركونها مع الله في العبادة ، فأرسل الله إليهم صالحاً واعظاً لهم ومذكراً لهم بنعم الله وآياته الدالة على توحيده ، وأنه لا شريك له ، فآمن به المستضعفون من قومه وكفر الملأ منهم ولم يؤمنوا له . وكان تدمير قوم صالح بالصاعقة وقد عبر الله تعالى عنها تارة بالرجفة وتارة بالطاغية وتارة بالصيحة(٣) .

ويرى براو أن ثمود أصيبوا بكارثة عظيمة من ثوران براكين أو هزات أرضية ، بدليل ورود كلمة رجفة وصيحة في القرآن الكريم . وذلك محتمل جداً لأن البقاع التي كانوا يقطنونها من مناطق الحرار(٤) .

ويشبه مصير ثمود مصير سدوم وعمورة وبقية مدن الدائرة في عمق السديم(٥) التي تقع في رأي كثير من علماء التوراة – في جنوب البحر الميت ، فقد لاقت هذة المدن وهي خمس على سهل دائرة الأردن المصير الذي لقيه عاد وثمود حيث أرسل

---

(١) C.M. Doughty, Travels in Arabia Deserta (London, 1936) Vol. I, p. 229; J.A. Montgomery, Arabia and the Bible (Philadelphia, 1934), p. 137.

(٢) سورة الشعراء : آية ٤٦ وما بعدها .

(٣) سورة الأعراف : آية ٧٨ ، هود : آية ٦٧ ، الحاقة : آية ٥ .

(٤) Encyclopedia of Islam, Vol. 4, p. 736.

(٥) قاموس الكتاب المقدس : ٥٥١/١ ، ١١٩/٢ ، ٣٠٠ ، وانظر أيضاً : J.A. Montgomery, Arabia and the Bible, p. 91; cf. B. Moritz, Arabien (Hanover, 1923), p. 28.

الله عليهم عذاباً « فأمطر الرب على سدوم وعموره كبريتاً وناراً من عند الرب من السماء ، وقلب تلك المدن وكل الدائرة وجميع سكان المدن ونبات الأرض »[١] .

ولكن بعد هذه الكارثة ، ظهر اسم ثمود في النقوش التي عثر عليها في منطقة الحجاز كما عثر على نقوش ثمودية امتدت على مسافة كبيرة في شمال الجزيرة العربية ووسطها ويعود قسم من هذه النقوش إلى ما قبل القرن السابع قبل الميلاد وقسم منها يعود إلى ما بعد الميلاد[٢] . كما ظهر اسم قبيلة ثمود في حوليات الملك سرجون الثاني الآشوري في القرن الثامن قبل الميلاد باعتبارها أحد أعدائه الذين أوقع بهم الهزيمة[٣] .

إذن فكيف نفسر هذه الظاهرة خاصة وأن القرآن الكريم قد ذكر قصة الكارثة التي نزلت على هؤلاء القوم . لقد قال بعض المفسرين إن صالحاً والذين آمنوا معه ذهبوا بعد هلاك قومهم إلى ناحية الرملة من فلسطين لأنها أقرب بلاد الخصب اليهم ، كما يقول أهل حضرموت إنهم ذهبوا إلى حضرموت وأقاموا بها لأن أصلهم من تلك الناحية . ويذهب آخرون إلى أنهم ذهبوا إلى مكة وأقاموا بها وزعم البعض أنهم أقاموا في ديارهم بعد هلاك قومهم[٤] . كما ذكر بعض المؤرخين أنه لم يبق من كفارهم على الأرض بعد الرجفة إلا رجل واحد ، هو أبو رغال كان في حرم الله فمنعه حرم الله من عذاب الله[٥] .

وأياً ما كان الأمر ، فإن بقية ثمود سواء من الذين آمنوا مع سيدنا صالح أو من كفارهم كان أمامها أحد أمرين ، إما أن تبقى في ديارها أو تهاجر إلى مكان آخر تبدأ فيه حياة جديدة . ومن المحتمل جداً أن بعض الثموديين فضّل البقاء في دياره

---

(١) تكوين ١٩ : ٢٣ وما بعدها .

(٢) جواد علي : المرجع السابق جـ١ ص ٣٣٠ .

(٣) J.B. Pritchard (ed. , Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament (New Jersy, 1955), p. 286.

(٤) عبد الوهاب النجار : المرجع السابق ص ٦٧ .

(٥) الطبري ٢٣١/١ وما بعدها .

الأصلية بينما آثر البعض الآخر الهجرة إلى الجنوب حيث مواطنهم الأولى في الأحقاف بين اليمن وعمان. وتشير بعض الروايات العربية إلى هذا الوجود الثمودي في الجنوب بل تضيف أن وجود الثموديين هناك كان على غير رغبة ملوك اليمن ، إذ بموت ملك سبأ وتولي ابنه حمير العرش سارع بطرد الثموديين من بلاده فاتجهوا إلى الشمال حيث استقروا في جبال الحجاز[1] . وربما تكون هذه الحادثة إحدى حلقات صراع امتدت جذوره في أعماق التاريخ بين الثموديين وملوك اليمن . وفي رواية أخرى أن قوم ثمود نزلوا بالطائف بعد العماليق فأخذوها منهم وذلك قبل رحيلهم عنها إلى وادي القرى بسبب منازعة القبائل لهم[2] . فمن المحتمل أن الطائف كانت إحدى محطاتهم أثناء هجرتهم الثانية من الجنوب إلى الشمال .

وهناك احتمال آخر هو أنه بعد فناء ثمود سكنت ديارهم إحدى القبائل العربية التي ربما هاجرت من الجنوب ، ثم طغى اسم ثمود عليها لما كان القوم ثمود من قدم راسخة وذكر ذائع في هذه الأمكنة .

وإذا صحت هذه الافتراضات فيمكن القول بأن قبيلة ثمود بدأت من جديد في الاستقرار في مواطنها الأصلية بالحجر بل أخذت تتوسع على حساب المناطق الأخرى في شمال ووسط الجزيرة العربية ، ثم اصطدمت أخيراً بالجيوش الآشورية والبابلية منذ القرن الثامن قبل الميلاد .

ويتفق هذا مع ما يذكره المؤرخون العرب من أن منازل ثمود لم تقتصر على الحجر بل شملت المناطق المجاورة التي تمتد بين الشام والحجاز إلى ساحل البحر الحبشي وذلك في طريق الحاج لمن ورد الشام بالقرب من وادي القرى[3] . ومن

---

(١) تاريخ أبي الفداء جـ١ ص ٧٠ .

(٢) جواد علي : المرجع السابق جـ٤ ص ١٤٦ ، ابن خلدون ٦٤١/٢ وما بعدها .

(٣) المسعودي : مروج الذهب ٢٥٩/١ ، نهاية الأرب ٧١/١٣ ، بطرس البستاني : دائرة المعارف العربية جـ٦ ص ٣١٢ .

المعروف أن هذه المنطقة تخترقها الطرق التجارية التي توصل الشام ومصر بالحجاز واليمن[1] .

وقد حفظت لنا الرواية العربية اسم ملك ثمودي يدعى جنداع ، الأمر الذي يحملنا على الظن بأن ثمود كانت مملكة مثلها مثل سائر الممالك التي كانت سائدة في بلاد العرب الشمالية منذ القرن التاسع قبل الميلاد . ولقد سجلت لنا حوليات العاهل الآشوري شلمنصر الثالث أن من بين الذين حاربوا الآشوريين في معركة قرقر رئيساً عربياً يدعى جنديبو[2] .

والجدير بالملاحظة هنا أن الاسمين جنداع وجنديبو يحملان معنى واحداً « جراده—دباه » الأمر الذي يدعو إلى الظن أنهما شخصية واحدة . فإذا كان ذلك كذلك فقد تكون الكلمة « عربي » التي استعملت في المصادر الآشورية مرادفة لكلمة « ثمودي » التي أوردتها الرواية العربية[3] . ولعل الذي حدا بالمؤرخين العرب أن يعتبروا جنداع—جنديبو ملكاً ثمودياً أنهم كانوا يعلمون أن النفوذ الثمودي كان ممتداً حتى حدود الشام وعلى أساس أن جنديبو كان ملكاً لمملكة في شمال بلاد العرب . ولكن يبدو أن أصحاب الرواية العربية قد وقعوا في خطأ تاريخي إذ أنه — كما سنرى — لم يكن نفوذ الثموديين قد امتد نحو شمال الجزيرة العربية في أيام شلمنصر الثالث .

ثمود في المصادر الآشورية والبابلية :

منذ القرن التاسع قبل الميلاد أصبح شمال الجزيرة العربية هدفاً استراتيجياً للقوات الآشورية والبابلية بعد أن سيطرت فكرة « الزحف نحو الجنوب » على ساسة بابل وآشور . وفي خلال ثلاثة قرون تمكنت هاتان الدولتان من بسط نفوذهما على عرب

---

(١) جواد علي : المرجع السابق جـ٧ ص ٣٤٧ وما بعدها .

(٢) Pritchard (ed.), op. cit. p. 279.

(٣) Van den Branden, Histoire de Thamoud, p. 5.

شمال الجزيرة وكانتا ناجحتين على الدوام . ولعل السبب الرئيسي الذي دفع الآشوريين والبابليين إلى الاهتمام بشمال الجزيرة العربية هو الرغبة في حماية الطرق التجارية التي كانت تسير فيها القوافل القادمة من الجنوب والمحملة بالبخور وغيره من المنتجات التي كانوا يتوقون إلى الحصول عليها . وقد كانت هذه القوافل معرضة دائماً لخطر السطو عليها من قبل القبائل الرعوية أثناء رحلتها الطويلة ، الأمر الذي جعل التدخل الآشوري والبابلي ضرورة ملحة لشن حملات تأديبية بين الحين والآخر لضمان وصول هذه المنتجات سالمة .

ولقد كان العاهل الآشوري شلمنصر الثالث (٨٥٨–٨٢٤ ق.م.) – أول من ذكر العرب في حولياته[١] ، إذ سجلت نصراً حربياً أحرزه في السنة السادسة من حكمه على حلف من قيلقيا ومصر وعمون وفينيقيا بالاشتراك مع رئيس قبيلة عربي يدعى جنديبو وذلك في موقعة قرقر عام ٨٥٣ق.م. لقد ساهم هذا الرئيس العربي في المعركة بجنوده وبألف من الإبل[٢] . وجنديبو اسم من الأسماء العربية المعروفة ، هو جندب الذي يعتبر أول اسم عربي يسجل في الكتابات الآشورية[٣] .

وفي القرن التالي أبلغنا تيجلات – بيلزر الثالث (٧٤٥–٧٢٥ ق.م.) أنه أوقع الهزيمة بملكتين عربيتين وأجبرهما على دفع الجزية[٤] . وإحدى هاتين الملكتين تدعى زبيبي وكانت تحكم العرب ولم يتحدث النص الذي سجل هذا الخبر عن مكان هؤلاء العرب أتباع هذه الملكة . وزبيبي تحريف لاسم زبيبه وهو من الأسماء العربية المعروفة. أما الملكة الأخرى فتدعى سمسى التي يبدو أنها انضمت إلى ملك دمشق في تحديه للآشوريين وتعرضت لقوافل آشور فجهز الملك ضدها حملة تغلبت عليها . ولضمان

---

(١) T.W. Rosmarin, „Arabi und Arabien in den babylonisch — assyrischen Quellen", JSOR, 16 (1932), p. 1-37.

(٢) Pritchard (ed.) op. cit. p. 279.

(٣) جواد علي : المرجع السابق جـ١ ص ٥٧٦ .

(٤) N. Abbot, „Pre-Islamic Arab Queens", AJSL, 58 (1941), P. 4.

تنفيذ مصالح آشور ، قرر الملك تعيين « قيبو » أي مقيم أو مندوب سام آشوري في بلاطها لإرسال تقارير إلى الحاكم الآشوري العام في سوريا عن نوايا الملكة وميول قبيلتها ولتوجيه سياسة الملكة على النحو الذي تريده آشور[١] . ويذكرنا اسم الملكي سمسى باسم عربي هو شمس وهو من الأسماء العربية القديمة التي ما تزال حية . وكانت الجزية التي فرضت عليها تشمل « كل ما هو ثمين » ذهباً وفضة وقصديراً وعاجاً وثياباً متعددة الألوان بالإضافة إلى الخيول والبغال والإبل والأغنام[٢] . كما ذكر الملك أيضاً أنه تسلم الجزية من تيماء وسبأ التي ورد اسمها بعد اسم تيماء مباشرة مما يدل على أن المقصود بالسبئيين في هذا النص الذين كانوا يعيشون على مقربة من التيمائيين في مستعمراتهم التي كانت منتشرة في شمال ووسط الجزيرة العربية[٣] . ويرى موسيل أنهم كانوا يقيمون إذ ذاك في ديدان وأنهم من السبئيين الذي أخذوا مكان المعينيين[٤] .

ويحدثنا سرجون الثاني (٧٢٤–٧٠٥ ق.م) أن من بين من هزمهم أثناء حملاته في الجزيرة العربية قبيلة (Amêlu) ثمود . ويتبين من أسماء المواضع والقبائل التي ذكرها سرجون أن تلك المعارك وقعت في أرضين تقع في الشمال الغربي من جزيرة العرب ، كما ذكر أن هؤلاء العرب الذين انتصر عليهم « ينزلون في مواضع نائية من البادية ولم يدفعو جزية لأي ملك »[٥] . ويستطرد النص ذاكراً أن الملك نقلهم إلى السامرة وأسكنهم فيها . ثم يذكر سرجون أنه تلقى الجزية من سمسى ملكة العرب

---

(١) جواد علي : المرجع السابق جـ١ ص ٥٧٨ . وكذلك :

A. Musil, Arabia Deserta (New York, 1927), p. 477 .

(٢) W. J. Martin, "Tribut und Tributleistungen beiden Assyrern, "Studia Orientalia, 8 (1936), p. 20FF.

(٣) جواد علي : المرجع السابق جـ١ ص ٥٨١ وانظر أيضاً :

Van den Branden, Histoire de Thamoud, p. 7.

(٤) A. Musil, The Northern Hegaz (New York, 1926), p. 288.

(٥) Pritchard (ed.), op. cit., p. 286.

ومن برعو ملك موصري ومن يثع أمر السبئي . وقد ورد في بعض التّرجمات بعد اسم يثع السبئي العبارة التالية : « ومن هؤلاء (الملوك) ملوك على الساحل ، و (ملوك) في البادية »[1] . وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على أن أولئك الملوك كانوا يحكمون أرضاً واسعة تمتد من البحر الأحمر إلى البادية ، وفي رأي جلازر كل المنطقة الّتي تقع إلى الشرق من مكة حتّى حدود سبأ في الجنوب[2] . وفي أغلب الظن أن ملك سبأ أسرع بحمل الجزية للملك المنتصر ليتجنب وقوع بلاده في قبضة الآشوريين . ومما هو جدير بالإشارة أن كلمة « مات » الّتي تعني « أرض » قد سبقت كلمة سبأ مما يؤكد أن المقصود هنا مملكة سبأ في الجنوب[3] . أما عن موصري ومملكة سمسى فتقعان بدون شك شمال الجزيرة العربية[4] .

أما سناخريب (٧٠٥–٦٨١ ق. م) فقد هزم المدعو بسقانو شقيق الملكة يطيعة ملكة العرب وخليفة سمسى . كما ذكر أيضاً هزيمة الأعراب التابعين للملكة تلخونو ملكة العرب ولم يتعرض لذكر الثموديين . وفي نص دونه أسارحدون (٦٨٠–٦٦٩ ق.م.) عن أعماله وأعمال أبيه ، ذكر أن أباه سناخريب أخضع أدوماتو (دومة الجندل)[5] واستولى على أصنامها وحملها معه إلى عاصمته وأسر ملكتها أبكالاتو وابنتها تبؤه[6] . وقد حرص أسارحدون على ذكر أسماء الأصنام الّتي استولى عليها وهي دايا ونوهايا وابيريلو وعتّر قرميه وعتّر سامين وروالدا . وكثير من هذه

(١) Ibid.

(٢) Glaser, op. cit., p. 262f.

(٣) F. Hommel, Grundriss der Geographie und Geschichte des atlen Prients (Mûnchen, 1926), p. 580.

(٤) H. Winckler, „Arabisches Musri", MVAG, 11 (1906), p. 102-116.

(٥) Musil, Arabia Deserta, p. 480.

(٦) Pritchard (ed.), op. cit., p. 291-292.

وعن قراءة اسم الملكة أبكالاتو بدلا من إسكالاتو ، انظر :

A. Heidel, „A New Hexagonal Prisme of Assarhaddon", Sumer, 12 (1956), p. 9-37.

الأصنام ما نجده مذكوراً في النقوش الثمودية باعتبارها أصناماً لآلهة ثمودية[١] . ويضيف اسارحدون أن ملك العرب خزائيل قصد نينوى لاستعادة الأصنام الأسيرة فسلمت له بعد أن نقش عليها اسم الملك[٢] .

وبلغ التدخل الآشوري في شئون الممالك العربية الداخلية حداً كبيراً لدرجة أن اسارحدون عين يثع ملكاً بعد وفاة أبيه خزائيل بل أسرعت القوات الآشورية لمساعدة الملك الجديد حينما واجهته ثورة داخلية . ولكن هذا التدخل الآشوري لم يجد فتيلاً . إذ أن آشور بانيبال (٦٦٨—٦٢٦ ق.م) اضطر لتجريد حملة لاخماد ثورة القبائل العربية بزعامة يثع بن بيردادا والملكة عديه والأخوين أبي يثع وعم ابنى تعرى وكذلك هزم تحالفاً كان أعضاؤه من المتعبدين للإله اترسماين[٣] وقد زينت جدران قصر هذا الملك بنقوش تمثل معارك حربية بين العرب والآشوريين وتعطينا صورة واضحة عن عرب الشمال فيصفهم « Meissner » بأنهم « رجال متوسطو القامة يرتدون ملابس صوفية بينما رؤوسهم عارية وتتدلى شعورهم على أكتافهم بينما لحاهم قصيرة مدببة والجمل يركبه اثنان منهم أحدهما لقيادته والثاني لضرب القوس »[٤] .

وما وصل إلينا عن صلات العرب بالبابليين يتمثل في تلك الحملة التي قام بها الملك البابلي نابونيد (٥٥٥—٥٣٨ ق.م.) إلى شمال الجزيرة العربية حيث وصل إلى دومة الجندل ومنها سار إلى تيماء التي أعمل في أهلها السيف وقتل أميرها ثم طاب له أن يستقر بها فابتنى بها قصراً ضخماً وأصبحت تيماء عاصمته الثانية بعد بابل حيث مكث هناك قرابة عشر سنوات[٥] . ومهما كانت الأسباب التي دفعت نابونيد إلى

---

(١) F. Jaussen and Savignac, Mission archéologique en Arabie, 317, 433.

(٢) Pritchard (ed.) op. cit., p. 291.

(٣) Ibid., P. 298-299.

(٤) B. Meissner, "Zwei Reliefs Assurbanipals mit Darstellungen von Arabern", Islamica, 2 (1926), p. 392.

(٥) C. J. Gadd, "The Harran Inscriptions of Nabonidus", Anatolian Studies, 8 (1958), p. 79.

الاستيلاء على تيماء سواء أكانت أسباباً دينية أم اقتصادية ، فإنه لم يذكر الثموديين الذين — في أغلب الظن — كانوا يسكنون المناطق التي استولى عليها — ولم تشر النقوش الثمودية إلى أي إجراء ضد نابونيد ولكنها ذكرت اسم الإله صلم[1] الذي كان مقدساً عند الآشوريين والذي أدخله الثموديون ضمن مجموعة آلهتهم .

وهكذا تخبرنا المصادر الآشورية أنه منذ القرن التاسع قبل الميلاد بدأ الملوك الآشوريون يهتمون ببلاد العرب ، ولكن نلاحظ أن كلا العاهلين الآشوريين شلمنصر الثالث وتيجلات بيلزر الثالث لم يذكرا في حولياتهما أنهما حاربا الثموديين ، الأمر الذي يجعلنا نعتقد بأن المناطق التي سيطروا عليها لم تكن مناطق نفوذ ثمودية . لقد كانت موصرى من بين المناطق التي وقعت تحت نفوذهما وكانت تقع في أرض مدين وقد اعتقد كل من Hommel و Grimme أن سكانها كانوا ثموديين وأنهم يعتبرون « أقدم مجموعة بشرية اكتشف وجودها في الجزيرة العربية »[2] .

ولكن الحقيقة أن الثموديين لم يسكنوا موصرى أيام الملوك الآشوريين ولم يلعبوا دوراً هاماً في تاريخ الجزيرة العربية إلا منذ القرن الثامن قبل الميلاد أيام الملك سرجون الثاني .

فقد سبق أن ذكرنا أن هذا الملك هزم قبيلة ثمود وهجر سكانها إلى السامرة . وأن ذكر سرجون لقبيلة ثمود من بين الشعوب التي هزمها ليدل على أن جيوشه استولت على منطقة لم تقربها جيوش أسلافه ، أي أن توغله كان أكثر منهم عمقاً في الجزيرة العربية . ويؤكد لنا سرجون هذا المفهوم بقوله أن هؤلاء العرب « ينزلون في مواضع نائية من البادية ولم يدفعوا جزية إلى أي مالك » . وبهذا يكون سرجون الثاني أول من تعامل مع الثموديين .

---

(١) Gadd, op. cit., p. 41.

(٢) Cf. G. Ryckmans, Langues et Ecritures sud — sémitiques, in Dictionnaire de la Bible, supplement (Paris, 1952), p. 321.

ويعتقد جلازر أن الثموديين الذين نقلوا إلى السامرة أرجعوا في زمن لاحق وتم توطينهم في جهة مدين[1] . ويبدو أن هذا الرأي قريب من الصواب .

وإذا كان سناخريب لم يذكر الثموديين من بين الذين انتصر عليهم ، فقد ذكر أسارحدون أن والده أخضع دومة الجندل وأسر ملكتها وأصنام آلهتها . ولما كانت أسماء هذه الآلهة هي نفس الأسماء التي نعرفها من النقوش الثمودية ، فمن المحتمل أن العرب الذين أخضعهم في الشمال هم الثموديون ، خاصة إذا أخذنا في الاعتبار أن وحدة العقيدة وارتباطها بوحدة الجنس كانت من أهم ملامح الشرق القديم[2] . ولكن قد يضعف هذا الافتراض أن جيوش سناخريب واسارحدون وآشور بانيبال هزمت مناطق في الشمال لا تنتمي إلى ثمود .

ومثل أسلافه فقد استولى نابونيد على كل المناطق الشمالية وجزءاً كبيراً من وسط الجزيرة العربية حتى يثرب[3] . وبالرغم من أن الثموديين كانوا يقطنون هذه الأماكن واشتبكوا معه في المعركة[4] ، إلا أنه أغفل ذكرهم فمن الجائز أن الملك البابلي تعمد ذلك إخفاء لهزيمته أمامهم ، ومن الجائز أيضاً أن الملك اكتفى بالاستيلاء على المراكز التي تتحكم في طرق القوافل والتي عددتها حولياته[5] ، أو أن البلاد التي غزاها لم تكن تحت سيطرة الثموديين .

ويؤكد لنا هيرودون[6] أن الأخمينيين ، خلفاء الملوك البابليين ، لم يواصلوا

---

(١) Glaser, op. cit., p. 102.

(٢) R. Dussaud, Les réligions des Hittites et des Hourites, des Phéniciens et des Syriens (Paris,1945), p. 358; Van den Branden, Histoire de Thamoud p. 10.

(٣) Gadd, op. cit., p. 80.

(٤) A. Van den Branden, Les textes thamoudéens de Philby (Louvain, 1956), Vol. II, p. 54-55.

(٥) Gadd, op. cit., p. 86.

(٦) قارن ، فيليب حتى : تاريخ العرب جـ١ ص ٤٧ من الترجمة العربية لمحمد مبروك نافع .

سياسة أسلافهم العربية ، وفي هذا الوقت انتهز الثموديون الفرصة لمواصلة تحركهم نحو الشمال .

ثمود في المصادر الكلاسيكية :

جاء في Strabon (٦٦ ق.م.—٢٤ م) أن Eratosthènes الذي عاش في القرن الثالث قبل الميلاد (٢٧٦ ق.م. — ١٩٤ ق.م.) قسم الجزيرة العربية إلى قسمين كبيرين ، بلاد العرب الشمالية وكان يسكنها الأنباط وبلاد العرب الجنوبية حيث عاش السبئيون والمعينيون والقتبانيون والحضارمة وبين المنطقتين ، أي في الحجاز وعسير ، يشير المؤلف إلى وجود جماعة من البدو وصفهم بأنهم « Arabes scenitae" "et camelorum pastores" أي : « عرب يقتفون الأثر ويرعون الإبل »[١] .

ويبدو أن المقصود بهؤلاء العرب قوم ثمود الذين شاهدهم ارستون أثناء رحلة اكتشافه سواحل البحر الأحمر أيام بطليموس الثاني ٢٦٩ ق.م. وذكر في تقريره أنهم كانوا يقطنون جزءاً من الحجاز جنوب المنطقة التي سكنها الأنباط[٢] .

وفي القرن الثاني الميلادي ذكر لنا Agatharchide (١٢٠م) أن الثموديين كانوا يحتلون في هذا الوقت شواطىء البحر الأحمر بين الوجه والمويلح[٣] .

كما يعطينا تيودور الصقلي (القرن الأول بعد الميلاد) وصفاً لهذه الشواطىء بأنها تمتد بطول مائة ستاد وتنحدر انحداراً شديداً وليس بها موانىء يلجأ إليها البحارة وقت الأخطار[٤] .

---

(١) A. Van den Branden, "Essai de solution du problem thamoudéens", BIOR, 15 (1958), p. 7-8; Glaser, op. cit., p. 43.

(٢) W.W. Tarn, „Ptolomy II and Arabia" JEA, 15 (1929), p. 14.

(٣) Glaser, op., p. 44.

(٤) W. Vincent, The Peripluse of the Erythraean Sea (London,1800), II, p. 262; Musil, op. cit., p. 302.

وحوالي نفس الوقت يذكر بلينوس (٣٢–٧٩م) أن الثموديين كانوا يقطنون الجهات الداخلية وليس على الساحل ، كما ذكر تيودور الصقلي ، ويخصص لهم مدن الحجر ودوماتا وبادانانا[١] . أما الحجر فهي الخريبة الحالية في رأي ومدائن صالح في رأي آخر . وأما دوماتا فهي دومة الجندل في الجوف جنوب وادي سرحان ، أما المدينة الثالثة فيعتقد جلازر أنها بيشه الحالية في عسير[٢] . وإذا كان بلينوس قد أسكن الثموديين في الداخل وليس على الساحل فيرجع ذلك إلى أن الساحل كان يحتله في ذلك الوقت اللحيانيون الذين يعتبرون فرعاً من الثموديين[٣] .

وفي القرن الثاني بعد الميلاد يروي لنا بطليموس (١٣٨–١٦٥م) أن الثموديين سكنوا شواطىء مدين بل أن نفوذهم امتد إلى ما وراء خليج العقبة[٤] بل يشير نفس المؤلف إلى أنهم سكنوا في المناطق الداخلية خاصة حول جبل زاماتوس الذي يعتبره جلازر جبل عريض[٥] . ويمدنا أورانيوس[٦] (ربما عاش في القرن الثالث أو الرابع الميلادي) بمعلومات مشابهة ويرى أيضاً أن الثموديين قطنوا في الشمال الغربي من الجزيرة العربية .

وهكذا تدلنا المصادر الكلاسيكية على أن الثموديين احتلوا نفس المناطق التي

---

(١) Pliny, Natural History History, trans. H. Rackham (London, 1945-1947), Vol. 2, p. 456; Vol. 6, p. 32.

(٢) Glaser, op. cit., p. 126.

(٣) Glaser, op. cit., p. 104.

(٤) J. Hastings, A Dictionary of the Bible, Vol. I, p. 630.

وإن النقوش والرسومات الثمودية التي عثر عليها في النقب لتؤكد المعلومات التي أوردها بطليموس .

قارن : E. Anati, "Ancient Rock Drowings in the Central Negev", Palestine Exploration Quarterly, April (1955), p. 49-57.

(٥) Glaser, op. cit., p. 108.

(٦) Uranius, Arabica, ed. Müller, Fragmenta Historicorum (Paris, 1851), Vol. 4, p. 522.

سبق للجيوش الآشورية أن استولت عليها منذ قرون مضت وهي مناطق الجوف وموصرى حتى بادانانا في الجنوب إذا صح ما افترضه جلازر . ولكن يجب أن نأخذ في الاعتبار أن الأماكن التي خصصتها المصادر المختلفة كمواطن لقبيلة ثمود كانت عرضة للاخلاء أو الاحتلال من جانب الثموديين وذلك تبعاً للظروف السياسية السائدة في ذلك الوقت . ولكن يجب ألا نطبق هذا المبدأ بصفة مطلقة على الثموديين أخذاً في الاعتبار طبيعتهم كقبيلة بدوية . كما يجب أيضاً ألا نأخذ المعلومات التي أمدتنا بها المصادر الكلاسيكية كما هي ، لأن الصورة التي ترسمها لمواطن الثموديين ليست كاملة . ففي الوقت الذي يتجاهل فيه سترابون – اعتماداً على مصدر من القرن الثالث قبل الميلاد – وجود قبيلة ثمود ، نجد أن معاصره ديودور الصقلي يذكر أن ثمود كانت تسكن شواطىء البحر الأحمر . وبعد ديودور ببضع سنوات يخبرنا بلينوس بأن الثموديين اتخذوا موطنهم في الداخل وليس على ساحل البحر ، إذ لا شك أنه كان لا يعرف اللحيانيين الذين كانوا يقطنون في ذلك الوقت سواحل مدين والذين اعتبروا فرعاً من ثمود . وبعد بلينوس بخمسة وسبعين عاماً يحدد لنا بطليموس مواضع ثمود على شاطىء مدين وتمتد حتى داخل الحجاز .

ويجيء أورانيوس ويذكر أن البلاد التي كانوا يعيشون فيها تسمى « ثمود » .

مما سبق يمكن القول بأن الثموديين كانوا يسكنون في القرن الثاني قبل الميلاد بلاد مدين التي بقوا فيها حتى نهاية القرن الثاني بعد الميلاد . وفي بداية القرن الأول الميلادي نجدهم في الحجاز والجوف ووسط الجزيرة العربية وظلوا في هذه المناطق حتى نهاية القرن الثاني الميلادي . فلو أضفنا إلى هذه المعلومات ، الاستنتاجات التي توصلنا اليها من دراسة المصادر الآشورية مع إشارات المؤرخين العرب ، أمكننا القول أنه منذ بداية القرن الثاني الميلادي اتسعت المنطقة التي سكنها الثموديون تدريجياً حتى شملت بلاد العرب الشمالية والوسطى من الحدود السورية شمالاً إلى مسافة قريبة من حدود سبأ جنوباً .

وفي القرن الخامس الميلادي ظهر الثموديون من جديد في المصادر المكتوبة فتشير

La Notitia Dignitatum [1] إلى فرقتين من العرب في خدمة الأباطرة الرومان . وتتكون الفرقة الأولى من « فرسان ساراكيني Saraceni ثموديين » وكانت تعسكر على الحدود شمال شرق مصر . أما الثانية فتسمى « فرسان الليريين ثموديين » وكانت تعسكر في الليريا . وقد أتى معظم هؤلاء الجنود من وسط الجزيرة العربية . وبالرغم من وصف هؤلاء الثموديين بالفرسان ، فمما لا شك فيه أنهم كانوا جنوداً مستوطنين يعملون بالزراعة حيث كانوا يستقرون مع عائلاتهم[2] . وفي بعض الأحيان كان يتحتم وجودهم في القلاع مثل قلعة أم الرصص قرب ديبان في شرق الأردن حيث عثر على نقوش لهم هناك[3] .

ثمود في النقوش غير الثمودية :

إذا كانت المصادر التاريخية قد حددت للثموديين امتداداً مكانياً غطى كل شمال الجزيرة العربية ووسطها[4] ، فقد أيدتها في ذلك بعض النقوش غير الثمودية . فهناك نقشان كتبا باللغتين اليونانية والنبطية في معبد رواف في مدين[5] .

ويؤكد موسيل أنه قرأ في هذا النقش أن شعب ثمود ethnos thamudenon هم الذين أسسوا معبد رواف[6] . ويتحدث النقش النبطي عن شخص يدعى شعدت الثمودي « tmdy » بأنه هو الذي بنى المعبد . ومن نقش نبطي آخر نعرف أن هذا

---

(١) Notitia Dignitatum, ed. Bôking (Bonn, 1839), p. 204 and p. 217; Doughty, Travels in Arabia Deserta, Vol. I, p. 229.

(٢) Dussaud, La Pénétration des Arabes, p. 157.

(٣) R. Savignac, "Sur les pistes de Transjordanie méridionale", Rev. Bibl., 45 (1936), p. 245.

(٤) انظر : J. Ryckmans, "Aspects nouveaux du probléme thamoudéens", Studia Islamica, 5 (1956), p. 8.

(٥) J. B. Philby, "The Land of Midian", The Middle East Journal, 9 (1955), p. 127f.; Van den Branden BIOR, 15 (1958), p. 8 f.

(٦) Van den Branden, Histoire de Thamoud, p. 15.

الشخص عمل كاهناً « أبكل » وينتمي إلى قبيلة روباث[1] . أما النقش اليوناني الذي ترجمه سـيرنج[2] فيقرر أن ثموديين ينتمون إلى قبيلة روباث « Phulês robathou » قد شيدوا هذا المعبد . فيفهم من هذين النقشين أن قبيلة روباث تنتمي إلى الثموديين وهذا يؤكد أن ثمود كانت تتألف من مجموعة من القبائل وقد أشار المؤرخون العرب إلى هذا ، كما تؤيد النقوش الثمودية هذه الفكرة[3] . ويؤكد لنا هذان النقشان وجود الثموديين في بلاد مدين وهذا يتفق مع ما قال به المؤرخون الكلاسيكيون .

وهناك نقش آخر مكتوب باللغة السبئية ويرجع تاريخه إلى نهاية القرن السادس أو بداية القرن الخامس قبل الميلاد ويحكي قصة اثنين من قبيلة ثمود كانا يباشران العمل في ري نخيلهما[4] . ولا يعرف من أي مكان جاء هذا النقش ولكن يغلب على الظن أنه أتى من بلاد سبأ .

وهناك نقشان سبئيان آخران[5] ، عثر عليهما في نجران ، يذكران اسم الإله صلم الذي كان مقدساً عند الثموديين في منطقة تيماء في العصر الذي استوطن فيه الملك البابلي نابونيد المدينة . وفي أغلب الظن أن هذه النقوش من عمل مهاجرين ثموديين .

ونملك أيضاً نقشين أثريين باللغة السبئية يذكران اسم ثمود[6] عثر على أحدهما

---

(١) Ibid.

(٢) M.H. Seyring, "Antiquités Syriennes", Syria, 34 (1957), p. 260, cf. Van den Branden, BIOR, 15 (1958), p. 9 and n. 24.

(٣) Vanden Branden, les textes thamoudéens de Philby, vol. II, p. IX-XIII.

(٤) Répertoire d'Epigraphie Sémitique, 3902 bis, n. 130; Van den Branden, Histoire de Ohamoud, p. 16.

(٥) Cf. J.B. Philby and A.s Tritton, "Najran Inscriptions", JRAS (1944), p. 119-129, no. 139 c and 140 a.

(٦) Répertoire d'Epigraphie sémitique, 5054.

في وادي ثوبا على بعد ٢٠٠ كم إلى الشمال الشرقي من عدن[1] ، بينما أتى الآخر من سايق في وادي مايفاعه جنوب محمية عدن . وإذا كان النقش الأول يذكر اسم شخص يدعى عبد وينتمي إلى قبيلة ثمود ، فلم يذكر الآخر إلا كلمة ثمود فقط . وفي أغلب الظن أن هذين النقشين من كتابة رحالة ثموديين وعلى ذلك فقد كان يوجد ثموديون في ممالك الجنوب في القرنين الرابع والسادس الميلاديين . ولقد أشارت أيضاً هذه النقوش اليونانية والسبئية إلى ذلك الامتداد الكبير لمواطن الثموديين والذي أشارت اليه المصادر الأخرى .

* * *

ثمود في النقوش الثمودية :

لقد كان العثور على اسم ثمود (t m d) في النقوش التي اكتشفت فوق صخور شبه الجزيرة العربية مدعاة لأن يطلق عليها بعض العلماء اسم النقوش الثمودية . ولقد حالف الصواب هذه التسمية خاصة أن المناطق التي تم العثور فيها على هذه النقوش كانت موطناً لقبيلة ثمود[2] . وبالرغم من أن البعض حاول أن يطلق عليها اسم النقوش اللحيانية ، إلا أن الدلائل كلها تشير إلى أن الذين كتبوا هذه النقوش ينتمون إلى شعب واحد ينقسم إلى مجموعة من القبائل[3] . ونادراً ما نقابل الاسم ثمود في النقوش ، فلم يظهر إلا ست مرات ، ثلاث منها في نقوش من منطقة المكتّبة الواقعة على بعد ٤٠ كم غرب تيماء ونقشان في منطقة جبل ميسما ونقش وحيد في منطقة حائل . وبناء على هذا حدد البعض مواطن ثمود بمنطقة الحجاز فقط[4] . ولكن ثبت خطأ هذه النظرية ، إذ وجد في هذه النقوش نفسها بعض أسماء أشخاص مقرونة

---

(١) Cf. Le Muséon, 62 (1949), p. 120.

(٢) M. Lidzbarsky, Ephemerides für semitische Epigraphick (Giesen, 1908), II, p. 25; Van den Branden, Histoire de Thamoud, p. 16.

(٣) A. Van den Branden, „Studia Islamica, 6 (1957), p. 5-27.

(٤) J. Ryckmans, Studia Islamica, 5 (1956), p. 8.

باسم مكان أو منطقة ، ومعظم هذه الأماكن أو المناطق غير معروفة ولكنها توجد في بلاد العرب الشمالية والوسطى بل الجنوبية أيضاً . وأن وجود هذه النقوش في هذه المنطقة الواسعة لدليل حي على أن الثموديين كانوا في يوم ما السكان الأصليين لشمال الجزيرة ، ولهذا فان القرآن الكريم ذكر الثموديين في أكثر من آية دون غيرهم من سكان المنطقة ممن كانوا أكثر منهم قوة سواء في مجال المدنية أو التجارة كالددادانيين واللحيانيين والأنباط . وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على توافق تام وتطابق محكم بين نصوص القرآن الكريم ومعلومات النقوش .

وأغلب هذه النقوش عبارة عن كتابات قصيرة دونت على مختلف الأحجار تخليداً لذكرى وجود صاحبها في هذا المكان أو ذاك ، كما تتعلق بموضوعات دينية وأدعية لآلهة ثمود[١] . وقسم من هذه النقوش يعود إلى ما قبل القرن السابع قبل الميلاد وقسم منها يعود إلى ما بعد الميلاد[٢] . وقد أيد التوزيع الجغرافي لهذه النقوش المعلومات التي أمدتنا بها المصادر التاريخية ولقد أتت معظم النقوش الثمودية من شمال الجزيرة العربية ووسطها . فقد عثر على كثير منها في تبوك وفي العلا وعلى طول الطريق بينهما وفي تيماء وخيبر وفي المكتّبة على بعد ٤٢ كم غربي تيماء وفي لقط وجبل مرير ومدائن صالح والسلاسل الجبلية الممتدة بين هذه المنطقة والحجاز وفي المدينة ووادي ألاب الذي يبعد عنها بحوالي ١٠٧ كم وفي مكة والطائف وفي ريع الزلاله في الطريق بينهما وفي السواحل الحجازية الشمالية للبحر الأحمر عند الوجه[٣] .

---

(١) A.Van den Branden, les inscriptions thamoudéennes (Louvain-Heverbe,1950).

(٢) جواد علي : المرجع السابق جـ١ ص ٣٣٠ .

(٣) C.M. Doughty, Documents épigraphiques recueillis dans le Nord de l'Arabie (Paris, 1884); Ch. Huber, Journal d'un voyage en Arabie (1883-1884), (Paris, 1891); A. Jaussen and R. Savignac, Mission archéologique en Arabie (Paris, 1904-1920), 4 Vols; Van den Branden, les textes thamoudéens de Philby, Vol. II. وانظر أيضاً ، كتابات من ألاب ، بحث للدكتور عبد الرحمن الأنصاري بمجلة كلية الآداب ، جامعة الرياض : المجلد الأول ، السنة الأولى (١٩٧٠م) ص ١١٣ وما بعدها .

كما عثر على كثير من النقوش في وسط الجزيرة العربية في حائل وسدير والقصيم وقارينا في ضواحي الرياض[1] .

أما في جنوب الجزيرة العربية فقد عثر على نقوش ثمودية في اليمن ، وفي حجر المعقاب عند جبل حليل وفي طريق البخور الذي يمتد من حضرموت إلى مكة وفي منطقة شواديف في اليمن الشمالية[2] . وفي خارج شبه الجزيرة العربية وجدت نقوش ثمودية في سينا ، وفي دلتا مصر وعلى طول الطريق التجاري بين القصير إلى النيل وفي الصفا شرق دمشق وفي الحره والرحبه وفي شمال غربي تدمر وفي صيدا وجبل الرام في أدوم وأم الرصص قرب ديبان في شرق الأردن وكذلك في النقب[3] . وتدل هذه النقوش التي عثر عليها خارج الجزيرة العربية على الصلات التجارية التي كانت بين الثموديين وبين هذه البلاد حيث تركت القوافل التجارية من ورائها هذه النقوش ولا يمكن اتخاذها دليلاً على امتداد نفوذ الثموديين إلى هذه المناطق .

وإن هذه النقوش الثمودية العديدة التي تم العثور عليها في بلاد العرب الشمالية

---

(١) Ch. Huber, "Inscriptions recueillies, dans l 'Arabie centrale, 1878-1882". Bull. Soc. Géogr., 5, p. 289-303; Van den Branden, les textes thamoudéens de philby, vol. II.

لعلها القرية التي تسمى الآن (القرينة) في الشمال الغربي من الرياض وعلى بعد ٧٥ كم منه .

(٢) خليل يحيى نامي : نشر نقوش سامية قديمة من جنوب بلاد العرب وشرحها – القاهرة ١٩٤٣ ، ص١٠٩ ، وكذلك :

Vanden Branden, Les textes thamoudéens de Philby, vol. I; J. Ryckmans"., Graffites thamoudéens du Yamen septentrional", Le Muséon 72 (1959), p. 177-189.

(٣) E. Littmann, Thamud und safa, p. 6f; 95f; R. Savignac and s. Horshield, "Le temple de Ramm" Rev. Bibl. 44 (1935), p. 245-278; G. Harding, Some Thamudic Inscriptions from the Hashmite Kingdom of the Jordan (Leiden, 1952); Petrie, Hyksos and the Israelite cities (London, 1906), p. 54; E. N. Kensdale "Three Thamudic Inscriptions from the Nile Delta", Le Muséon, 65 (1952 , p. 285-288; H.A. Winckler, Rock Drawings of Southern Upper Egypt (Londores, 1938), p. 5 and p. 10.

والوسطى تؤلف نسيجاً ذا طراز واحد ونمط واحد ، بل تكون وحدة متجانسة تختلف تماماً عن نماذج الكتابات الديدانية واللحيانية والمعينية الموجودة في نفس هذه المناطق . وإن هذه الوحدة أصبحت مؤكدة برغم أن هذه النقوش الثمودية تنقسم بدورها إلى فروع كثيرة . وأن وصف هذه النقوش بأنها نقوش ثمودية قد ثبت صحته لأن اسم قبيلة ثمود قد جاء ذكره في هذه النقوش التي عثر عليها في أماكن عدة ، علاوة على ذلك فقد ثبت أن النقوش الأصلية من هذا الطراز قد وجدت في أماكن اعتبرتها المصادر المختلفة كموطن لقبيلة ثمود . ولعل الاختلافات في الخط الثمودي مضافاً إليها أن بعض النقوش الثمودية من هذا الطراز قد وجدت في أماكن لم تذكرها المصادر العربية والكلاسيكية على أنها مواطن لقبيلة ثمود ، فقد أثار الشك حول صحة هذه النظرية . فهل تنتمي هذه النقوش إلى قبيلة ثمود وحدها ؟ إن الدراسة التي قام بها براندن لأربعة آلاف نقش في شمال الجزيرة العربية تحتم الإجابة على هذا السؤال بالإيجاب[١] .

ولقد اعترض كثير من العلماء على ما ذهب اليه براندن وآخرهم ريكمانز[٢] الذي بنى اعتراضه على أساس أنه ليس من المعقول أن تحتل قبيلة ثمود هذه المساحة الواسعة من الأراضي خاصة وأن المصادر الكلاسيكية والعربية قد نسبت اليها مساحة أقل من ذلك . ولكن يقف أمام هذا الاعتراض ما سبق أن لاحظناه من أن المصادر العربية والكلاسيكية قد أشارت إلى وجود الثموديين في كل بلاد العرب الشمالية ومعظم الوسط .

* * *

(١) Van den Branden, Histoire de Thamoud, p. 21.

(٢) Ryckmans, studia Islamica, V (1956), p. 8.

الأمة الثمودية وتوسعها :

قد يتساءل المرء في بداية الأمر هل كانت ثمود قبيلة ؟ إن من يقرأ النقوش الثمودية يدرك على الفور أنها كتبت بأيدي أفراد يشيرون إلى أنفسهم بأنهم ينتمون إلى هذه القبيلة أو تلك بحيث إن عدد القبائل المذكورة يعد كبيراً نسبياً . ويرد في النقوش الكلمة « آل » أي « قبيلة » ولكنها لم تستخدم أبداً مع الكلمة « ثمود » . وسبق أن ذكرنا أن الكلمة « ثمود » نادراً ما ذكرت في النقوش ، فقد ذكرت فقط ست مرات ، إحداها في صيغة النسبة[1] . أما باقي الحالات فذكرت كاسم كما في العبارة « ست حثمد » أي « سيدة ثمود »[2] فيبدو أن الكلمة هنا تعبر عن أمة أو شعب ويبدو هذا المعنى واضحاً في النقوش الأخرى التي تسبق فيها الكلمة « ثمود » اسم إله أو اسم علم . وقد يؤيد هذا الرأي ما ذكر في النقوش الأخرى من عبارة مشابهة مثل « ست ذو يمن » أي « سيدة اليمن[3] » وإن كلمة ثمود التي وضعت في صيغة النسبة تنطبق على شعب أو أمة أكثر من انطباقها على قبيلة . وأن النقش الذي ظهرت فيه هذه الكلمة لينتمي إلى النمط الثاني للكتابة الثمودية الذي ينتهي حوالي القرن الرابع بعد الميلاد ، بينما النقوش الأخرى تنتمي إلى النمط الأول الذي يبدأ حوالي القرن الخامس قبل الميلاد[4] .

ويؤيد النقشان غير الثموديين المذكورين آنفاً هذا المعنى الذي تعبر عنه كلمة « ثمود » . ويرجع تاريخ النقش الأول المكتوب باللغتين اليونانية والنبطية إلى القرن الثاني الميلادي ويحتوي على عبارة ethnos thamûdênôn « الشعب الثمودي » ويتكلم النص النبطي عن كاهن ثمودي يؤكد أنه هو الذي بنى المعبد . ويوحي كلا النصين

---

(١) Jaussen and Savignac, Mission archéologique en Arabie, 280.

(٢) Van den Branden, les inscriptions thamoudéennes, 51, 2.

(٣) Van den Branden, Les textes thamoudéens de philby, 277 (a 10.

(٤) Van den Branden, Histoire de Thamoud, P. 22.

بأن الكلمة « ثمودي » تشير إلى « أمة » خاصة أننا نعرف من نقش نبطي آخر أن هذا الكاهن ينتمي إلى قبيلة روباث .

لذلك يبدو أنه حوالي منتصف القرن الثاني الميلادي ، كان الثموديون يعتبرون أمة تتكون من مجموعة من القبائل وليست قبيلة واحدة . ويبدو أن وضع الثموديين هذا كان شبيهاً بوضعهم قبل نزول الكارثة عليهم ، فقد أشارت المصادر العربية إلى هذه الحقيقة حيث جاء فيها على لسان كعب « لما أهلك الله عز وجل عادا ، جاءت ثمود وعمرت الأرض وكانوا بضع عشرة قبيلة[١] » .

ومن النقش اليوناني الذي عثر عليه في معبد رواف نفسه ، نعرف أن الثموديين – قبيلة روباث – قد شيدوا المعبد . فكلمة ثموديين هنا تعطي ، بدون شك ، معنى أكبر من قبيلة . فالمقصود هنا الأمة الثمودية . أما بالنسبة لقبيلة روباث فيحتمل أن تكون هي بعينها قبيلة رابيث التي عثر على اسمها في طريق مدائن صالح – تيماء[٢] .

وهكذا نرى أن ثمود كانت تؤلف وحدة وإن ظهر عدم التجانس بين بعض أجزائها ، إذ يبدو أن الاختلاف الذي يظهر في النصوص لايتعارض مع وحدة هذا الشعب . لقد كان الاختلاف منذ البداية اختلافاً في القبائل ولم يعوق هذا الاختلاف الوحدة الثمودية مثلما كان الحال في دولتي معين وسبأ حيث لم يمنع اختلاف القبائل فيهما من وحدتهما . ولقد تجلى هذا الاختلاف أيضاً في استخدام عناصر مختلفة في الأبجدية تبعاً للأماكن والعصر .

فالأبجدية الثمودية أيضاً كانت تمثل وحدة بالرغم من وجود اختلافات فيها والتي يمكن إرجاعها إلى تيار التطور[٣] . وبرغم هذه الاختلافات فاللغة واحدة والديانة واحدة في كل مكان اعتبر وطناً للثموديين .

---

(١) نهاية الأرب ٧١/١٣ .

(٢) Van den Branden, BIOR, 15 (1958 , p. 9, n. 25.

(٣) Van den Branden, studia Islamica, 6 (1957 , p. 10-12.

وفي أغلب الظن أن الروابط التي وجدت بين هذه القبائل ، والتي لا يمكن تحديد طبيعتها في ضوء معلوماتنا الحالية ، لم تكن لها القوة التي ساهمت في نشأة الممالك في جنوب الجزيرة العربية . ولعل السبب الرئيسي لهذا التفكك في العلاقات بين هذه القبائل الشمالية هو عدم وجود قوة مركزية تستقطب حولها تلك القبائل المتفرقة . والدليل ينقصنا دائماً على وجود مملكة ثمودية ، يضاف إلى ذلك أن قبيلة ثمود الأصلية يبدو أنها لم تعمل على فرض سلطتها الإدارية على المناطق التي احتلتها كما فعلت قبائل سبأ ومعين في الجنوب . كما أن اتساع مساحة الأرض بجانب النزعة الفردية بين القبائل ، كل ذلك لم يساعد على خلق سلطة مركزية . هذا بجانب الأخطار الخارجية التي تمثلت في التوسع النبطي وسيطرة سبأ ومعين على المناطق الحيوية في الشمال حيث كان لهذه الدول مصالحها التي كانت تذود عنها بالقوة المسلحة إذا لزم الأمر . فكل ما يمكن أن يقال في ضوء المعلومات التي أمدتنا بها المصادر التاريخية والنقوش أن ثمود كانت أمة تضم اتحاداً بين القبائل تربطها ببعض روابط دينية وحضارية وتحتل مساحة كبيرة من الأرض[1] .

أما عن قصة توسع الأمة الثمودية فلا تعطينا المصادر التاريخية أو النقوش أية تفصيلات عنها ، ولكن هناك إشارات قد تسمح بتكوين صورة عن توسع الثموديين ولكن هذه الصورة لا تخرج عن مجال الافتراض .

في القرن الثامن قبل الميلاد كانت ثمود قبيلة بمعنى الكلمة ، حيث إن النصوص الآشورية المعاصرة استخدمت كلمة قبيلة « Amêlu » قبل كلمة ثمود[2] ، وكانت تقطن المناطق التي كانت مكة والمدينة جزءاً منها[3] . ثم كانت حملة سرجون الثاني التي هزم فيها قبيلة ثمود وهجّر سكانها إلى السامرة . ومن المحتمل أن هجوم سرجون

---

(١) Van den Branden, Histoire de Thamoud, p. 24.

(٢) F. Hommel, Grundriss der Geographie und Geschichte des alten orients (Mûnchen, 1926 , p. 580.

(٣) Glaser, op. cit., p. 230.

اضطر جزءاً من هذه القبيلة إلى الالتجاء إلى جبال الحجاز . ومهما كان الأمر ، فقد كان الثموديون يسكنونها في القرن السادس قبل الميلاد ، وحتى هذا التاريخ كانوا قد استوعبوا حضارة وثقافة السكان الأصليين ، ففي هذا الوقت نقابل ، لأول مرة ، نقوشهم ذات الخط المستعار من ديدان[1] .

وكانت هذه أول حركة توسعية قام بها الثموديون .

وقد رأينا أنه ابتداء من القرن التاسع حتى نهاية القرن السادس قبل الميلاد شن الملوك الآشوريون والبابليون حروباً ضد سكان بلاد العرب الشمالية الذين كانوا يطلقون عليهم الاسم العام « عرب » . وكانت تنتظم هؤلاء العرب مملكة ذات سلطة مركزية إذ كان يحكمها ملوك وملكات . ويمكن القول أن هذه المملكة كانت تملك من العدة والعدد ما يجعلها تقف في وجه الجيوش المعتدية ، ولكن سوء الحظ كان دائماً حليفها في هذه الحروب . وبسقوط الامبراطورية البابلية حوالي نهاية القرن السادس قبل الميلاد وبعد أن ذاق العرب مرارة الاستعمار قرابة ثلاثة قرون ، يبدو أنهم قد أصيبوا بالضعف حتى إن العاهل الفارسي قمبيز اكتسح أراضيهم بدون أي مقاومة أثناء حملته على مصر[2] .

وتعطينا حوليات سناخريب وابنه أسارحدون أسماء معبودات هؤلاء العرب التي ظهر معظمها في النقوش الثمودية منذ بداية القرن الخامس قبل الميلاد بينما لم تذكر في نقوش القرن السادس قبل الميلاد . فهل استفادت ثمود من سقوط بابل ومن ضعف عرب الشمال لتسيطر على هذه المناطق ؟ لقد كانت هذه فرصة مواتية ليوسع الثموديون حدودهم وخاصة وأن ملوك الفرس الذين خلفوا بابل لم يبدو اهتماماً كبيراً ببلاد العرب .

وكانت هذه ثاني حركة توسعية قام بها الثموديون .

---

(١) Van den Branden, les inscriptions thamoudéens, p. 16-17.

(٢) A. Aymard les premiéres civilisations (Paris, 1950) Vol. I, p. 689.

في أيام الآشوريين كانت بلاد العرب الشمالية تنقسم إلى ثلاث ممالك : مملكة شرقية وعاصمتها أداماتو (دومة الجندل) والتي نعرف عدداً من ملوكها وملكاتها . كما أن الآلهة التي ذكرها سناخريب وأسارحدون تنتمي إلى هذه المملكة . وإلى الغرب من حدود هذه المملكة كانت تقع موصري التي ربما امتدت حدودها حتى شواطىء البحر الأحمر . وإلى الشمال من هذه المملكة كانت توجد مملكة أدوم . فهل احتوت هذه الموجة التوسعية الثانية التي قام بها الثموديون المملكة الشرقية فقط أم أنها احتوت أيضاً مملكتي موصرى وأدوم ؟ هناك احتمال قوي بأن كل هذه الممالك قد استولى عليها الثموديون مرة واحدة . لقد تنبأ أرميا وحزقيال وعبدياس بتدمير أدوم في القرن السادس ، كما يخبرنا ملاخي[1] أن أدوم قد اختفت حوالي منتصف القرن الخامس . وربما لم يكن الثموديون أجانب هناك[2] . وفي ذلك الوقت كانت أولى موجات المنفيين اليهود قد عادت لتوها إلى يهوذا ومن المحتمل أنه في ذلك الوقت أيضاً لم يتردد المنفيون الثموديون في السامرة من مغادرتها متجهين نحو الجنوب حيث يحتمل لحاقهم بالقبيلة الأم في أدوم وموصرى[3] . وأياً ما كان الأمر ، فقد كان الثموديون مقيمين هناك بشهادة أرستون وأجاثارخيد في القرن الثاني قبل الميلاد .

وإذا كان اتجاه هاتين الحركتين التوسعيتين نحو الشمال ، فهل كانت هناك حركة توسعية ثالثة اتجهت نحو الجنوب ؟

إذا صدقنا رأي جلازر[4] ، لم تكن الحدود الجنوبية لثمود بعيدة عن سبأ في القرن الثامن قبل الميلاد ، وكما ذكرنا أن ملك سبأ يثع أمر أسرع بحمل الجزية لسرجون الآشوري الذي كان قد هاجم الثموديين . علاوة على ذلك فقد عثر على

---

(١) ملاخي ١ : ٤ .

(٢) J. Starcky, "The Nabataeans: A Historical Sketch", The Biblical Archaeologist, 18 (1955) p. 86.

(٣) Glaser, op. cit., p. 109.

(٤) Glaser, op. cit., p. 128.

نقوش من طراز ثمودي حتى حدود سبأ . ولقد رأى ريكمانز[1] أن الذين دونوا هذه النقوش هم الذين تذكرهم النصوص السبئية باسم « عرب » والذين كانوا يسكنون على الحدود الشمالية للمملكة السبئية كما تشير إلى ذلك النصوص نفسها . كما أن هؤلاء العرب كانوا في بداية الأمر سكان بلاد العرب الشمالية الذين نزحوا منها ليستقروا في الوسط[2] .

فإذا كان ذلك كذلك ، فنحن أمام ثموديين جاءوا من الشمال إلى وسط الجزيرة العربية دفعهم إلى ذلك إما عامل التوسع أو الهجرة . ولكن متى حدثت هذه الحركة التوسعية ؟ نحن نعرف أن هؤلاء العرب قد ذكروا في النصوص السبئية ابتداء من نهاية القرن الثاني قبل الميلاد[3] . وبالتالي فقد كانوا موجودين في هذا المكان في ذلك الوقت ، ومما يؤكد ذلك أنه في القرن الأول وفي القرن الثاني قبل الميلاد ، أشار كل من بطليموس وبلينوس إلى وجود ثموديين في عسير . وتؤيد هذا التاريخ الدراسة التي قام بها براندن لهذه النقوش الثمودية التي وجدت في الجنوب والتي أثبت أنها تنتمي إلى الطراز الأول من الخط الثمودي الذي كان مستعملاً في الشمال من بداية القرن الخامس قبل الميلاد حتى القرن الثالث الميلادي . والشيء المهم حقاً أن هؤلاء الناس القاطنين على الحدود السبئية قد استخدموا أبجدية الشمال لا أبجدية الجنوب ، الأمر الذي يؤكد أنهم أتوا بها من الشمال . علاوة على ذلك فإن محتويات نقوشهم لتعكس مظاهر الحضارة الشمالية[4] . وكل ما يمكن قوله الآن أن هجرة ثمودية قد اتجهت نحو الجنوب في زمن لاحق للهجرات الشمالية . وإذا كانت حركة التوسع الأولى قد حدثت نتيجة لحملات سرجون والحركة الثانية نتيجة لانهيار الامبراطورية البابلية ، فمن المحتمل أن تكون الحركة الثالثة مرتبطة بالغزو النبطي . فمع اقتراب

---

(١) Ryckmans, studia Islamica, 5 (1956 , p. 16.

(٢) Corpus Inscriptionum Semiticarum, IV, 79.

(٣) Ryckmans, Studia Islamica, 5 (1956), p. 16.

(٤) Van den Branden, Histoire de Thamoud, p. 28.

العصر المسيحي ، نجح الأنباط في السيطرة على كل مناطق الحجاز بعد أن تسببوا في سقوط المملكة اللحيانية[1] . فمن المحتمل أنه في هذا الوقت نزحت أعداد كبيرة من القبائل الثمودية إلى الجنوب خشية الوقوع تحت السيطرة النبطية .

* * *

نهاية الأمة الثمودية :

لقد كان الثموديون أمة انتشر شعبها تقريباً في كل بلاد العرب الشمالية والوسطى . ولكن هذه الأمة لم تصبح أبداً مملكة بما تحمل تلك الكلمة من معنى . ولقد كانت تمثل نوعاً من اتحاد قام بين قبائل مختلفة ، كانت أقواها قبيلة ثمود التي خلعت اسمها عليه . وكانت تربط بين هذه القبائل روابط دينية وثقافية ضعيفة . ويبدو أن ثمود لم تستطع الدفاع عن حدودها كما فعل عرب الشمال ضد الغزو الآشوري . ولقد بدأت عوامل انحلال الأمة الثمودية من داخل نفسها . فبعد غزو الشمال بقليل ، حوالي منتصف القرن الخامس قبل الميلاد ، انفصل الفرع اللحياني عن الأمة الثمودية مكوناً مملكة مستقلة بعد أن غزا مملكة ديدان التي يبدو أن ثمود لم تقربها أثناء حركة توسعها الأولى . وبمرور الوقت بدأت لحيان في الضعف . ولعل الخطر الحقيقي الذي هدد ثمود جاء من الخارج . فقبل العصر السليوقي بقليل ، بدأ تحرك الأنباط إلى بلاد العرب حتى تمكنوا من تكوين مملكة في الشمال الغربي على حساب أملاك الثموديين ، ومع اقتراب التاريخ الميلادي سيطروا على كل أواسط الحجاز بعد أن ضغطوا على اللحيانيين والمستعمرين المعينيين في عقر دارهم . ولكن ماذا حدث للثموديين إبان هذه الأحداث ؟

يصور المؤرخون الكلاسيكيون الثموديين في هذا الوقت كقوم يعيشون على حدود المملكة النبطية ، وربما رحلت بعض قبائلهم نحو الجنوب ولكن هناك احتمال

---

(١) Van den Branden, La chronologie de Dedan et de Lihyan", BIOR, 14 (1957), p. 16.

كبير أن قبائل أخرى استمرت تعيش داخل المملكة النبطية نفسها . وهناك أدلة تشير إلى أن الثموديين قد تأثروا كثيراً بالحضارة النبطية لدرجة كادوا معها أن ينسوا حضارتهم الأصلية . وفي الحقيقة أنه حوالي منتصف القرن الثاني الميلادي حينما أصبحت مملكة الأنباط ولاية رومانية ، بدأوا في تشييد معبد رواف وقد سبق أن ذكرنا أن النقوش التي أشارت إلى تأسيس هذا المعبد قد كتبت باللغة النبطية واليونانية ، كما أن طراز هذا المعبد كان نبطياً أيضاً[١] . وبالرغم من هذا فقد كان الثموديون لا يزالون يعتبرون أمة في ذلك العصر وكان قد مضى على اختفاء مملكة الأنباط خمسين عاماً[٢] . فهل ساعد هذا الحدث التاريخي الثموديين على استعادة ممتلكاتهم القديمة بتشجيع من الرومان ؟ من الجائز حدوث هذا ، ولكن هناك حقيقة لا مفر من الاعتراف بها وهي أنه بعد زوال دولة الأنباط ، استمر الثموديون في اتباع أساليب الحضارة النبطية في مناطقهم قرابة قرن ونصف من الزمان . فلدينا نقش نبطي جنازي يرجع إلى عام ٢٦٧م كتبته أسرة ثمودية وقد عثر عليه فوق تلال الحجر[٣] ، وقد كتب اسم المتوفى بحروف ثمودية .

بعد ذلك اتجهت الأحداث نحو الشرق حيث مملكة الحيرة التي كان يتربع على عرشها امرؤ القيس في حوالي منتصف القرن الرابع والذي لم يتردد في التوغل في بلاد العرب ، بل نجح في إخضاع جزء من الشمال والوسط وكان يحمل لقب « ملك العرب »[٤] . وفي القرن السادس كانت حدود مملكة الحيرة على مقربة من حدود سبأ ، كما نعرف أن المنذر الثالث ملك الحيرة هاجم المستعمرين السبئيين ، الأمر الذي أدى إلى تدخل ملك سبأ معد كرب يعفر[٥] . فماذا حدث للثموديين ؟

---

(١) J.B. Philby, The land of Midian (London, 1957), p. 127.

(٢) Starchy, The Biblical Archaeologist, 18 (1955), p. 101f.

(٣) Van den Branden, les inscriptions thamoudéennes, p. 410.

(٤) جواد علي : المرجع السابق ج٣ ص ١٩٠ .

(٥) G. Ryckmans, „Inscriptions sud-arabes, dixième sèrie, „Le Muséon, 66 (1953), p. 307-311, n. 150.

لقد كان العرب دائماً في الوسط ويبدو أن سبأ نجحت في إخضاعهم ، ومن المحتمل أن يكونوا قد تفاهموا مع أعدائهم القدماء اتقاء لخطر مملكة الحيرة . ومهما كان الأمر فمنذ بداية القرن الرابع نجدهم دائماً بجانب سبأ في كل المشروعات الحربية .

وفي القرن الخامس الميلادي ظهر الثموديون الشماليون من جديد في أحد المصادر التاريخية . فقد سبق أن ذكرنا أن Dignitatum Notitia أشارت إلى وجود فرسان Saraceni Thamudeni في الجيش الروماني وأنهم كانوا يعسكرون في مصر وفلسطين . وابتداء من القرن الثالث الميلادي أصبح التعبير « Saraceni » يقصد به شعب وليس قبيلة[1] . ويفيدنا بطليموس أن هذا الشعب كان من جيران الثموديين . فإذا اعتبرنا الكلمة « Thamudeni » صفة ، فنكون أمام تعبير خاص بالثموديين . وبناء على ذلك يمكن أن نستنتج أنه في القرن الخامس الميلادي كانت لا تزال الأمة الثمودية قائمة . وإذا صدقنا الرواية العربية التي ربطت نسب قبيلة ثقيف ، التي سكنت في الطائف ، بثمود[2] ، فيعني ذلك أن ثمود كانت لا يزال لها دورها في العصور الإسلامية .

بعد ذلك كان الصمت واختفت ثمود من مسرح تاريخ شبه الجزيرة العربية .

المجتمع الثمودي :

كان الشعب الثمودي يضمه اتحاد من قبائل مختلفة « آل » والتي كانت بدورها تنقسم إلى مجموعات عديدة يطلق عليها أسماء «أهل» و «بيت» و «ذو» (ذات)[3] وكانت القبيلة « آل » هي الوحدة الاجتماعية الأكثر أهمية والتي تخضع لها بقية المجموعات الأخرى . وتختلف أهمية القبيلة عن الأخرى حسب عدد « البيوت » أو حسب ما يتمتع به أفرادها من ثراء . ولعل هذه الفروق الفردية كانت دائماً خطراً

---

(١) Encyclopédie de Pauly-Wissowa, IA 2, article Saraka, col. 2387-2390.

(٢) ابن خلدون ٢/٢٤ ، الكامل ١/٢٧٦٠ .

(٣) Cf. R. Montagne, La civilization du désert (Paris, 1947), p. 51-59.

على الأمة وكانت دائماً مصدراً لكثير من الثورات والحروب التي يعطينا تاريخ ممالك جنوب الجزيرة العربية خير أمثلة لها . أما في شمال الجزيرة العربية ، فقد تمكنت قبيلة لحيان بمساعدة القبائل الأخرى الأقل أهمية من الانفصال عن ثمود لتكون مملكة لحيان كما فعلت ديدان وكنده في الجنوب . وأسماء القبائل التي ذكرت في النقوش الثمودية كثيرة العدد[1] . فعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر منها قبيلة هند وحبب وميط وزخر وأزبح وخميم وعد ودحال وتنّون ووائل ومطت .

وتعني كلمة « أهل » التي هي جزء من القبيلة ــ عائلة أو أفراداً ينتمون إلى جماعة أو حي أو حرفة واحدة . فالنقوش تذكر لنا أهل المنع وأهل أول وأهل نور وأهل ذوـأتع وأهلات تنّت . أما استخدام هذه الكلمة لتعبر عن مجموعة أفراد تربطهم حرفة واحدة فيظهر في عبارة « أهل عير » أي الذين يعملون في تجارة القوافل .

وتعني كلمة « بيت » المنزل أو الأسرة التي تسكن تحت سقف خيمة واحدة ومن أسماء هذه البيوت بيت عقر وبيت دين وبيت ورن وبيت قاهم وغيرها من البيوت التي تظهر في النقوش الثمودية[2] .

أما الكلمة المذكورة ذو ومؤنثها ذوات فتعبر عن الانتماء إلى قبيلة أو مكان ومعناها صاحب ، وكثيراً ما تحذف هذه الكلمة ويكتب اسم القبيلة أو المكان بجوار اسم الشخص بدون رابطة بينهما كما هو الحال في بلاد العرب الجنوبية[3] .

ومن النقوش الثمودية نعرف أن المجتمع الثمودي كان يضم بين أفراده أحراراً

---

(١) Van den Branden, les textes thamoudéenns de philby, II, p. IX.

(٢) Ibid., p. X-XI.

(٣) A. Jamme, Piéces épigr4phiques de Haid Bin ,Aqll. La nécropole de Timna (Laivain, 1952), p. 7.

وانظر أيضاً ، كتابات من قرية (الفاو) ، بحث للدكتور عبد الرحمن الأنصاري نشر بمجلة كلية الآداب ، جامعة الرياض : المجلد الثالث ، السنة الثالثة (١٩٧٣م) ص ٤٥ .

وعبيداً . ومن بين الأحرار نجد أن شخصاً احتفظ بالسلطة في يده واتخذ لقب « مرا » أي أمير أو سيد . ومن أمثال هؤلاء المدعو هفن الذي كان سيداً لعشيرة يدهم . وكان الرئيس الذي يمارس السلطة شخصاً ذا أهمية ، ولكن يبدو أنه لم يكن ملكاً بما تحمله الكلمة من معنى مثلما كان الحال في ممالك جنوب الجزيرة العربية . ويبدو أنه كان يقوم بالدور الذي يقوم به الشيخ في العصور الحديثة[1] . وإذا صدقت الروايات العربية ، تكون ثمود قد عرفت النظام الملكي حيث أن أسماء كثير من الملوك والملكات قد جاءت في حديثهم عن شمال الجزيرة العربية . ومن المؤكد أن الفرع اللحياني كان يتمتع بالنظام الملكي ولكن من المحتمل أن يكون اللحيانيون قد أخذوه عن الديدانيين الذين ورثوا منهم السلطة[2] .

وكثير من النقوش تشير إلى وجود طبقة من العبيد الذين يصعب معرفة ما إذا كانوا من سكان البلاد الأصليين وفقدوا حريتهم لسبب أو لآخر . فهناك نقش يذكر أن « داد أصبح عبداً » وهذا يرجح أنه كان من مواطني ثمود . ولكن غالبية العبيد كانوا من أسرى الحرى الأجانب . وتدلنا النقوش أيضاً أن العبد قد يعتق[3] . فها هو المدعو « شمل » يعلن أنه أعتق . كما نقابل في النقوش اسماً يعني « العبد أصبح حراً » . وقد تنتقل ملكية العبد من شخص إلى آخر وهذا يدل عليه الاسم « بل قد تم بيعه » . وهناك ما يشير إلى أن العبد لم يكن يعيش في ظروف سيئة في معظم الأحوال ، وهذا ما نستنتجه من الاسم « ملكيتم » الذي يعني « العبد يسود[4] » .

ولا تمدنا النقوش بالكثير عن الدور الذي لعبته المرأة في المجتمع الثمودي ولعل الاسم « لميش » الذي يعني « امرأة رقيقة » يلقي ضوءاً على مقدار التقدير الذي كانت

---

(١) J. Hess, Von den Beduinen des Innern Arabiens (Leipzig, 1938), p. 88.
وانظر أيضاً ، فيليب حتي : تاريخ العرب جـ١ ص ٣٥ .

(٢) Van den Branden, BIOR, 14 (1957), p. 16.

(٣) Jaussen and Savignac, Coutumes des Fuqarâ (Mission) archéologique en Arabie, supplement au vol. II., paris, 1914), p. 33.

(٤) Van den Branden, Histoire de Thamoud, p. 36.

تحظى به المرأة الثمودية . وأحياناً كانت المرأة تقوم بدور على جانب من الأهمية . فإذا كانت الروايات العربية قد ذكرت لنا أسماء بعض الملكات ، فقد أمدتنا النقوش بمعلومات تفيد أن المرأة قد قامت بمهمة الإرشاد إلى أقوم الطرق . ويبدو أن المرأة التي تحدثت عنها هذه النقوش كانت تشغل وظيفة كاهنة والتي ثبت وجودها في بلاد العرب الشمالية خاصة في النقوش اللحيانية التي كانت تسميها « افكلت[1] » . كما نعرف أن الملكة تلخونو حملت هذا اللقب ، ولهذا السبب اعتقد بورجر أن الملكات العربيات كن مسئولات عن الناحية الروحية في المملكة بينما انصرف أزواجهن إلى النواحي السياسية[2] .

وقد يؤكد وجود مثل هذه الوظيفة عند الثموديين ما جاء في رواية ابن الأثير من أنه كان يوجد في الحجر كاهنة كان الناس يستشيرونها في مشاكلهم[3] .

وكثيراً ما نجد أجانب في المجتمع الثمودي ، فتشير النقوش إلى وجود سبئيين ومعينيين ومصريين . وغالباً ما يردف اسم الشخص باسم مدينة أو أخرى من مدن جنوب الجزيرة العربية أو باسم قبيلة من القبائل . وقد يفسر وجود أمثال هؤلاء الأجانب إما بسبب التجارة أو بسبب انتقال القبيلة الأصلية من الجنوب . ولا أدل على أن هؤلاء الأجانب كانوا مواطنين دائمين في ديار ثمود من أنهم استخدموا اللغة والكتابة الثمودية في معاملاتهم اليومية . وقد يلجأ هؤلاء الغرباء إلى الاندماج في قبائل ثمود إما لأسباب جنسية أو تجارية أو دينية . وللحصول على هذه القرابة القبلية كان لزاماً عليهم أن يشاركوا أفراد القبيلة طعامهم أو يمصوا بضع نقط من دمائهم[4] .

---

(١) F.V. Winnet, A Study of the Lihyanite and Thamudic Inscriptions (Toronto, 1937), p. 17.

(٢) R. Borger, „Assyriologisch und altarabische miszellen", Orientalia, 26 (1957), p. 10.

(٣) Van den Branden, Histoire de Thamoud,p. 37. â

(٤) فيليب حتي : تاريخ العرب جـ١ ص ٣٣ .

كان الثموديون يصورون كرجال ذوي قامة عادية ، ويبدو أنهم كانوا من العنصر ذي الرأس المستطيل مثلهم في ذلك كمثل سكان بلاد العرب الشمالية[1] . وكان الرجال ذوي شعور قصيرة ويلبسون إزاراً وحزاماً في الوسط والرأس عادة عارية ولكن في بعض الأحيان يلبس الرجال غطاء رأس من القش . وهناك من يلبس ثوباً وعلى رأسه عمامة[2] والبعض يرتدي قميصاً ينزل حتى الركبة[3] . أما شعور النساء فكانت طويلة وبعض الرسومات تصور لنا نساء وقد حملن سلالاً فوق رؤوسهن وقد ارتدين أثواباً طويلة تنزل حتى العرقوب[4] . ومن أسماء النساء نعرف أنهن كن يرتدين خماراً « رطت » فوق الرأس . وهذه هي الصور التي نراها في النقوش البارزة التي تزين قصر نينوى وكما هي العادة عند النساء العربيات في بلاد العرب الشمالية والجنوبية قبل الإسلام وفي كثير من البلاد العربية في العصر الحاضر . وكانت النساء الثموديات مغرمات بالتزين بالحلى والأساور « فارج » والعقود على هيئة الهلال أو الجعل وكانت المرأة التي لاترتدي حلياً في جيدها تسمى « آتل » واستعمال الدهون كان شائعاً بدليل وجود اسم العلم « مرخ » .

لقد ذكر الله تعالى في كتابه الكريم أن قوم ثمود كانوا يسكنون قصوراً في السهول وينحتون بيوتاً في الجبال « واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين »[5] .

وحينما مر الرسول صلى الله عليه وسلم بالحجر في غزوته لتبوك ذكر أن بيوتها

---

(١) المرجع السابق ص ٣٧ ،

Van den Branden, les textes thamoudéens de philby, 164 (b). *â*

(٢) Ibid, 159 (b).

(٣) Ibid, 256 (i).

(٤) Ibid, 268.

(٥) سورة الأعراف : آية ٧٤ .

منحوتة في الجبال مثل المغاور ، كل جبل منقطع عن الآخر ويطاف حولها ، وقد نقر فيها بيوت تقل وتكثر على قدر الجبال التي تنقر فيها وهي بيوت في غاية الحسن ، فيها بيوت وطبقات محكمة الصنعة وفي وسطها البئر التي كانت تردها الناقة[1] . ومن آثارها الباقية بقايا أبراج وآثار سور ويظهر من أسس بعض الدور أنها بنيت بالحجارة أما الجدران فقد بني أكثرها باللبن[2] .

لقد جاء ما في النقوش وما صورته الرسومات التي عثر عليها في مواطن ثمود مصداقاً لقوله تعالى ولقول رسوله الكريم . فأحد الرسومات تصور لنا بعض منازل هؤلاء القوم وهي عبارة عن أبنية ذات أبواب مقبية[3] . وربما تكون هذه هي القصور التي ورد ذكرها في القرآن الكريم . علاوة على ذلك فقد عثر فيلبي على بقايا منازل ومنشآت للري وأبراج للدفاع في مواضع ثمود بالحجر[4] . وأن إنشاء هذه الأبراج قد ذكر في النقوش الثمودية ومن أسماء الأعلام نعرف أن الثموديين كانوا على علم بانشاء القباب . كما أن الاسم « ساكف » أي « عتب الباب » يدل على أنهم شيدوا لهم قصورا في السهول بجانب بيوت الجبال . لقد عرف الثموديون البناء بالحجر ، إذ كثيراً ما نقابل في النقوش الفعل « بنى » ولعل الاسم « حوز » يشير إلى أن الثموديين اعتادوا إحاطة مساكنهم بسور وقد اشتقت كثير من أسماء المدن من هذه العادة[5] . ولكن كثيراً من الثموديين كانوا يسكنون في أكواخ من الطين الجاف بينما كان يقيم الرعاة في خيام ، وتشير النصوص إلى إقامة الخيام في مكان أو آخر كما أن الاسم « بيت » يعني « خيمة صغيرة » .

---

(١) تاج العروس : ١٢٤/٣ وما بعدها .

(٢) جواد علي : المرجع السابق جـ٣ ص ٥٦ .

(٣) Van den Branden, Les textes thamoudéens de philby, 159 (b); Ch. Huber, Journal d'un voyage en Arabie, p. 275.

(٤) J.B. Philby, "The Lost Ruins of Quraiya", The Geographical Journal, 117 (1951), p. 453 and 455.

(٥) Cf. G. Ryckmans, Le Muséon, 69 (1956), p. 153.

ولقد ذكر الله تعالى أن قوم ثمود كانوا أهل خصب ورفاهة حال ، لما كان لهم من الماشية الكثيرة والجنات الوافرة الجنى والعيون التي يستقون منها هم وماشيتهم وزروعهم وفي ذلك يقول تعالى : « أتتركون في ما ها هنا آمنين في جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم »[1] ، كما أشارت الروايات العربية إلى أنهم كانوا قوماً مستقرين . ولقد جاء في رسومات هؤلاء القوم ما يصور النخيل ومن أحد النقوش نعرف أن ثماره كانت تقدم للآلهة[2] . كما أن أحد النقوش يشير إلى أن أسرة ثمودية كانت مستقرة في الجنوب حيث أقامت هناك نظاماً للري في مزرعة نخيلها[3] .

كما تشير النقوش الثمودية أيضاً إلى الحياة المستقرة التي كان يحياها الثموديون . فهناك رسم يصور لنا عملية حرث الأرض[4] . وهو عمل كثيراً ما تتحدث عنه النقوش . لقد كان بعض الأشخاص يدعون « أكّار » أي فلاح و « عيّان » أي سكة المحراث ، وهي أسماء تشير إلى مهنة الزراعة . وأن الاسم « رال » الذي يعني قش يدل على زراعة أنواع مختلفة من الحبوب . كما يشير إلى ذلك أيضاً الاسم « زرا » أي بذر . لقد كانت زراعة العنب معروفة عند الثموديين بدليل وجود الاسم « عنّاب » أي تاجر العنب ، وهذا يدحض الرأي القائل بأن زراعة الكروم لم تدخل بلاد العرب إلا في القرن الرابع الميلادي[5] ، وكان الخمر يصنع من عصير العنب أو البلح ولا أدل على ذلك من وجود الاسم « تاجر العصير »[6] . ومن الرسوم المتعددة لشجرة النخيل ندرك أن ثمار النخيل كانت الغذاء الرئيسي لهؤلاء القوم[7] .

---

(١) الشعراء : آية ١٤٦–١٤٨ .

(٢) Van den Branden, Histoire de Thamoud, p. 39.

(٣) Répertoire d'Epigraphie Sémitique, 3902 bis, n. 130.

(٤) Van den Branden, Les inscriptions thamoudéennes, 690.

(٥) فيليب حتي : تاريخ العرب جـ١ ص ٢٣ .

(٦) نفس المرجع ص ٢٢ .

(٧) نفس المرجع ص ٢٢–٢٣ .

ومما يؤكد زراعة القطن الاسم « برس » أي شعر القطن والاسم « هلق » أي حلاج القطن الذي يشير أيضاً إلى صناعته . كما أن زراعة البصل والبخور والورود كانت معروفة ويدل على ذلك أسماء الأعلام . وللحصول على الماء اللازم كانت تحفر الآبار وتشيد الخزانات التي تستخدم مياهها للشرب ولسقي الأرض التي كان ملاكها يحددونها بعلامات معينة . ولقد كان لهذه الينابيع والآبار والخزانات ملاكها الذين كانوا إما أشخاصاً أو عشائر وكان لهم الحق في استعمالها وأحياناً يسمح للغير باستعمالها أيضاً . ولقد كان من أهم أسباب حروب الصحراء النزاع حول المياه بصفة عامة[1] . وكثيراً ما كان يلام أولئك الذين يلوثون الآبار التي كانت تغطى أو تردم في حالة الحرب خشية أن يستفيد منها العدو .

وفي أغلب الأحيان كانت الآبار تحفظ في حالة جيدة وقد ذكر في مواضع كثيرة من النقوش الثمودية ما يشير إلى إصلاح الآبار . وقد تختلف مساحة الأرض المزروعة تبعاً لنوع التربة . ففي القرية بلغت المساحة المزروعة أكثر من ٢٠٠٠ فدان[2] .

ويبدو أن حرفة الصيد كانت من أهم أعمال الثموديين خاصة سكان مدين . فلقد عثر على ثلاث رسومات لسفن[3] كانوا يستعملونها في صيد الأسماك . ولوجود هذه الرسومات في الجبال الداخلية دلالة على أن الصلة كانت مستمرة بين سكان الحجاز وسكان الساحل . ويشبه طراز هذه السفن طراز السفن الفينيقية[4] . هذا بالإضافة إلى أن طراز هذه السفن الثمودية قد عثر عليه مرسوماً في صخور وادي الحمامات في صحراء مصر الشرقية بجوار بعض النقوش الثمودية ، الأمر الذي يحمل

---

(١) نفس المرجع ص ٣١ .

(٢) Philby, The lost Ruins, p. 544.

(٣) Van den granden, les textes thamoudéennes de philby, Eut. 557, ph. 262 (F), ph. 275 (q); Van den Branden, Histoire de Thamoud, p. 40f.

(٤) قارن ، فيليب حتّي : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين جـ١ ص ١٠٦ من الترجمة العربية لجورج حداد وعبد الكريم رافق – بيروت ١٩٥٨ .

على الظن بأنها مراكب ثمودية تخص تجاراً ثموديين استخدموها في عبور البحر الأحمر إلى الشاطيء الغربي[1] . ولعل وجود بعض أسماء الأعلام مثل « سمك » و « نون » يشير أيضاً إلى مهنة الصيد في البحر ، كما أن الاسم « ثمر » الذي يعني « صياد اللؤلؤ » قد يوحي أيضاً بأن الثموديين كانوا يعملون في هذه الحرفة . من كل ما تقدم نرى أن فريقاً من المجتمع الثمودي كان يعيش عيشة استقرار في قرى ومدن ويسكنون في بيوت ويعملون بالزراعة وصيد الأسماك وهما مهنتان متصلتان بالحياة المستقرة أكثر منها بالحياة الرعوية . ولقد خلف لنا الثموديون كثيراً من الآثار التي تدل على هذه الحياة المستقرة فنعرف خرائب الحجر وآثار رواف وقرية وخريبة ثمود في بيشا[2] . وفي الشمال من تريم يوجد بئر قديم للماء يحمل اسم « بئر ثمود »[3] .

وتوضح لنا النقوش الثمودية مرة أخرى أن فريقاً من المجتمع الثمودي كان بدواً رحّلا . فكثير من النصوص تتحدث عن حط الرحال في مكان أوآخر وقضاء الليل وشد الرحال وإيقاد النار وقضاء الصيف في ناحية أو أخرى . وهناك كثير من العبارات التي تشير إلى هذه الحياة المتنقلة فأحياناً يعلن أن الحالة سيئة جداً وأن الناس أصبحوا على حافة الهلاك من قلة المياه وأنهم أصبحوا منهوكي القوى من شدة التعب أو أنهم ضلوا الطريق أو عبروا الصحراء أو أنهم يسيرون بسرعة أو على مهل . وبين هؤلاء البدو الرحل من يعمل في تجارة القوافل أو « أهل عير » على حد تعبير النقوش . وبعض أفراد القافلة من يحمل لقب « عاكّام » (قائد قافلة) ، وقد تكون القافلة التجارية مشروعاً فردياً مثل قافلة عدنت بن بعل هاـــجاتد كما يذكر أحد النقوش . وفي بعض الأحيان تكون مشروعاً جماعياً تنظمه عشيرة بأكملها أو بعض التجار الأغنياء[4] . وكانت القوافل التجارية تحدد الأماكن التي تحط فيها بحيث تكون في

---

(١) F.M. Green, Notes some Inscriptions in the Etbay District", PSBA, 35 (1909), P1. XXXVI.

(٢) Glaser, op. cit., p. 128.

(٣) Van den Branden, Histoire de Thamoud, p. 42.

(٤) Van den Branden, Histoire de Thamoud, p. 42f.

مأمن من أخطار الصحراء وبحيث تحميها الحصون الطبيعية وعادة ما تكون على مقربة من عيون الماء التي كانت تحدد أماكنها علامات معروفة[١] . ومن أطول الطرق التي كانت تسير فيها هذه القوافل التجارية الطريق الذي يغادر اليمن وحضرموت إلى ديدان[٢] . ومن ديدان يخترق هذا الطريق مدين ومنطقة جبل رام لينتهي في غزة[٣] . ولكنه يتشعب أيضاً تجاه الغرب ليصل إلى البحر الأحمر وهناك يتصل بوادي الحمامات حتى النيل[٤] . كما كانت ديدان مرتبطة أيضاً بآشور عن طريق يخترق كل شمال بلاد العرب[٥] . وقد تلجأ القوافل التجارية إلى سلوك طريق آخر غير الطريق المألوف وذلك لاتقاء خطر عدو مرتقب وذلك يفسر وجود العديد من النقوش في أماكن غير مطروقة .

وكانت حرفة صيد الحيوانات شائعة بين الثموديين إما للتسلية أو للحصول على الغذاء . ومن الحيوانات التي رسمت على الصخور وكانت دائماً هدفاً للصيد الوعل وكبش الجبل والنعام والأسد والفهد والغزال وحيوانات الصحراء الأخرى[٦] . ويتم الصيد غالباً بأن تطارد الحيوانات تجاه مكان محاط بسور ليسهل صيدها ، ومن المناظر المألوفة على الصخور منظر الصياد وقد ركب حصانه وقد صوب حربته تجاه وعلٍ وقد تساعد الكلاب الصيادين في الصيد وأحياناً يستخدم الصياد الجمل بدلاً من الحصان والسيف أو حبل الصيد بجانب الرمح[٧] .

---

(١) H. Philby, Arabian Highlands (Ithaca, 1952), p. 235.

(٢) Cf. Encyclopédie de l'Islam, III, p. 296 and IV, p. 254.

(٣) Harding, op. cit., p. 2.

(٤) فيليب حتي : تاريخ العرب ج١ ص ٣٩ .

(٥) A. Kammerer, Petra et la Nabatène (Paris, 1929), p. 48.

(٦) Van den Branden, les Textes thamoudéennes de Philby, Eut. 44, Ph. 210 (h).

(٧) Ibid., Ph. 160 (c), Eut. 26, Eut. 241, Ph. 210 (h).

وتتشابه مناظر الصيد المصورة على لوحات الأردواز التي عثر عليها في مقابر ما قبل الأسرات في مصر مع=

وبجانب هذه الحرف توجد حرف أخرى مثل حرفة رعي الماشية وحمايتها من هجوم الحيوانات المفترسة ، كما كان لكل قبيلة رسلها الذين يحملون الأخبار للقبائل الأخرى كما كان هناك النساجون للقطن ووبر الحيوانات لصنع الملابس والخيام ومن القبائل التي تخصصت في هذه الحرفة قبيلة « بني » ويعني اسمها « التي تصنع وتبيع الملابس الخشنة » .

وأن وجود مثل هذه الأعداد الوفيرة من النقوش على صخور بلاد العرب لتدل على أن معظم الثموديين كانوا يعرفون القراءة والكتابة نساء ورجالاً ، إذ نجد إحدى النساء تسمى « سحّف » أي « التي تخطىء عند القراءة » . وهناك نص نعرف منه أن فتاة صغيرة كتبت اسمها على الصخر بينما كان والدها يراقبها . كما كان من بين الثموديين الأميون بدليل أن أحدهم كان يسمى « أمي » كما كان من بينهم من احترف مهنة الكتابة بدليل وجود الاسم « كتب » أي كاتب . ومن أسماء الأشخاص يمكن أن نستنتج أنه كان يوجد الحدادون وصناع الجرار والسلال والحلى والنحاتون الذين كانوا يقومون بنحت التماثيل للآلهة[1] .

وكثيراً مانقابل في النقوش الثمودية ألفاظاً مثل قتل وهاجم وأوقع والتي تشير إلى حروب كانت تنشب ضد قبيلة أو شعب أجنبي[2] .

وتدلنا النقوش الآشورية أن عرب الشمال كانوا دائماً معارضين لسياسة آشور التوسعية . كما تتحدث النقوش الثمودية عن حرب ديدان كما تعطى إشارات عن

= مناظر الصيد عند الثموديين دون سائر مناطق بلاد العرب ، فأدوات الصيد واحدة : الرمح والقوس وحبل الصيد ، مما يدل على الاتصال الدائم الذي كان بين الشعبين .

Cf. A. Moret and G. Davy, Des clans aux, empires (Paris, 1923), p. 147 and p. 149.

(١) Van den Branden, Histoire de Thamoud, p. 57f.

(٢) Montagne, op. cit., p. 92.

الحرب ضد بابل . وإذا كانت الحروب ضد الشعوب الأجنبية قد حتمتها الرغبة في المحافظة على الاستقلال ، فان الحروب ضد القبائل الأخرى كان دافعها النزاع حول امتلاك آبار المياه أو المراعي . وكانت المعارك تحدث في الصحراء ، وقبل الهجوم كانت تتخذ المواقع الملائمة خلف الحصون الطبيعية . وكانت الغنائم سواء من الأسري أو الماشية تقسم بعد إحراز النصر . وقد يسرح هؤلاء الأسرى أو يصبحوا عبيداً . هذا كل ماتدلنا عليه النقوش من معلومات عن الحروب الثمودية. ومن الرسومات نعرف أن الأسلحة التي كانوا يستخدمونها الرمح والسيف والقوس والبلطة ، وكان الحصان هو حيوان الحرب بلا منازع [1] .

◆◆◆◆◆◆

(١) Van den Branden, Les textes thamoudéennes de Philby, Ph. 238 (c), Ph. 275 (I), EuI. 451, Ph. 160 (c, f).

من محتويات هـذا العدد :

باللغة العربيـة :

النحو بين التجديد والتقليد ، للأستاذ محمد عبد الخالق عضيمة .
باب اطراد الإبدال في الفارسية عند سيبويه ، للدكتور السيد يعقوب بكر .
تفسير بعض مشكلات العربية الفصحى ، للدكتور عبد الغفار حامد هلال .
ظاهرة التصرف الإعرابي في العربية وأهميتها في تحديد المعنى وتوضيحه ، عبدالله حمد الخثران .
تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل ، للدكتور أحمد السعيد سليمان .
شعر السيرة النبوية لابن هشام في ميزان النقد ، للدكتور محمد رجب البيومي .
قوم ثمود بين روايات المؤرخين ومحتويات النقوش ، للدكتور خالد طه الدسوقي .
دراسة حول العرب وعلاقاتهم الدولية في العصور القديمة ، للدكتور محمد بيومي مهران .
دور الصناعة والمراكز البحرية في سورية في العهد الإسلامي الأول ، للدكتور علي محمد فهمي شتا .
الدولة الأخيضرية ، عبدالله بن يوسف الشبل .
نظرة على رحلة لويس پلي إلى الرياض ، للدكتور عبد الفتاح حسن أبو علية .
الهجرات السامية ، للدكتور محمد السيد غلاب .
خراسان ، محمود شاكر .
موارد المياه في دولة الإمارات العربية وعلاقتها بالتنمية الزراعية ، للدكتور محمود محمد عصفور .
مصادر الطاقة في أفريقيا ، للدكتور السعيد إبراهيم البدوي .
جهود المستشرقين في مجال التكشيف الإسلامي ، للدكتور عبد الستار الحلوجي .
التوثيق وضرورته في البحث العلمي ، مصطفى محمد مقبول حلاوة .
تعقيب على ما نشره الدكتور الحلو ، صالح بن فوزان العبدالله .
وثائق الجزيرة العربيـة ، للدكتور محمد المعتصم

باللغة الإنجليزية :

بعض الأضواء الجديدة على انتشار الإسلام في السودان الشرقي ، للدكتور مصطفى محمد مسعد .
الإنسان والخطيئة ، أحمد عبد العزيز جلال .
العصر الحديث وتحديه لقيمنا الأخلاقية ، جليل الدين أحمد خان .



المطابع الأهلية للأوفست — الرياض